
رواية
سفاح
الأزقة
(للمحقق أديم)
عثمان عابد

(الرياض)

ربيع الأول، ١٤٣٦ هـ

نداء الواجب

أسندتُ رأسي على المقود وأنا أتنهد بعمق، واضعًا يدي في جيبَيْ معطفي الأسود... بعد يومٍ طويلٍ مرهق في العمل. أغمضتُ عيني لأريحمها وقد غزا الصداع رأسي بالكامل. لم أملك الطاقة لأدخل شقتي، بعد أن توقفتُ أمام العمارة وأنا لا أتذكر كيف وصلت لها أصلًا... من شدة التعب. أتذكر أني كنت أغفو في الطريق لتوقظني أبواق السائقين المنزعجين الذين كدتُ أصطدم بهم. برودة الجو بالخارج شجعتني لأطيل المكوث في سيارتي، لا سيما والتكييف الحار قد جعل الجو مناسبًا جدًّا لإكمال الليلة هناك.

بدأت أنجرف مع أفكاري بعيدًا عن عالمنا، إلى العالم الآخر الذي يحبه البعض وقد يبغضه الكثيرون... عالم الأحلام. أتساءل دائمًا قبيل النوم، كيف يتحول الجسم من اليقظة إلى الغفوة؟ ثم يرتعش جسدي بالكامل لفكرة أني قد لا أستيقظ أبدًا، ورب...

أفزعني رنين الهاتف وأعادني إلى الواقع، رفعتُ رأسي وفتحتُ عيني المرهقتين لأستلم هاتفي وأنظر للمتصل... رقم هاتف

مجهول. لم تكن عادتي تجاهل أي اتصال ولو من الغرباء، فقبلتُ المكالمة ووضعتُ السماعة على أذني... همستُ بصوتٍ مرهق:

«ألو»

أجابني المتصل بصوتٍ حاد:

«السلام عليكم»

رددتُ عليه السلام باستنكارٍ منتظِرًا منه الإفصاح عن هويته.

«الرائد (أديم أحمد)؟»

تساءل المتصل وهو ينطق اسمي بغرابة واستنكار، كما هو الحال دائمًا مع من يقابلني لأول مرة... مما جعلني أكره اسمي الغريب أحيانًا.

اعتدلتُ في جلستي مقطِّبًا حاجبي، لآخذ الاتصال بجدية تامة مُجيبًا:

«نعم هذا أنا»

عندما يقترن اسمي برتبتي العسكرية فهذا يعني غالبًا أن الأمر يتعلق بعملي.

«معك العقيد (رعد) من المباحث الجنائية، وقد تم اختيارك

لتكون ضمن فريق التحقيق الخاص لقضية (سفاح الأزقة)... سيتم إنهاء إجراءات الطيران والحجوزات لقدومك لـ(الطائف)»

فتحتُ عينيَّ على مصراعيهما بعد نزول الخبر علي كالصاعقة! دقاتُ قلبي تتسارع وصداعي يتزايد، لم تكُن صدمتي في أن تم انتدابي لتحقيقٍ خارج (الرياض)... بل لانتدابي في تلك القضية بالذات... قضية (سفاح الأزقة)!

الجريمة التي هزت مدينة (الطائف) بل المملكة بأسرها، وأصبح العالم يترقب أخبارها ومستجداتها أولًا بأول. ليست جريمةً أصلًا، بل سلسلة جرائم بشعة... سلبت النوم من أعين الناس و...

«(أديم)؟ ما زلت معي؟»

قاطع العقيد دوامة أفكاري بعد أن طال صمتي، ومشاهد الجرائم تلك وأحداثها تمر على ذاكرتي.

«حسنًا سعادة العقيد»

قلتُ بشرودٍ وأنهى هو المكالمة، سرت داخلي رعشةٌ وانتفضتُ بالكامل... حين تذكرت ما يفعله ذلك السفاح بتلك الأزقة! أطفأتُ المحرك ونزلتُ لشقتي مهرولًا، حان الوقت لتلبية نداء الواجب.

(الطائف)، (أم العراد)

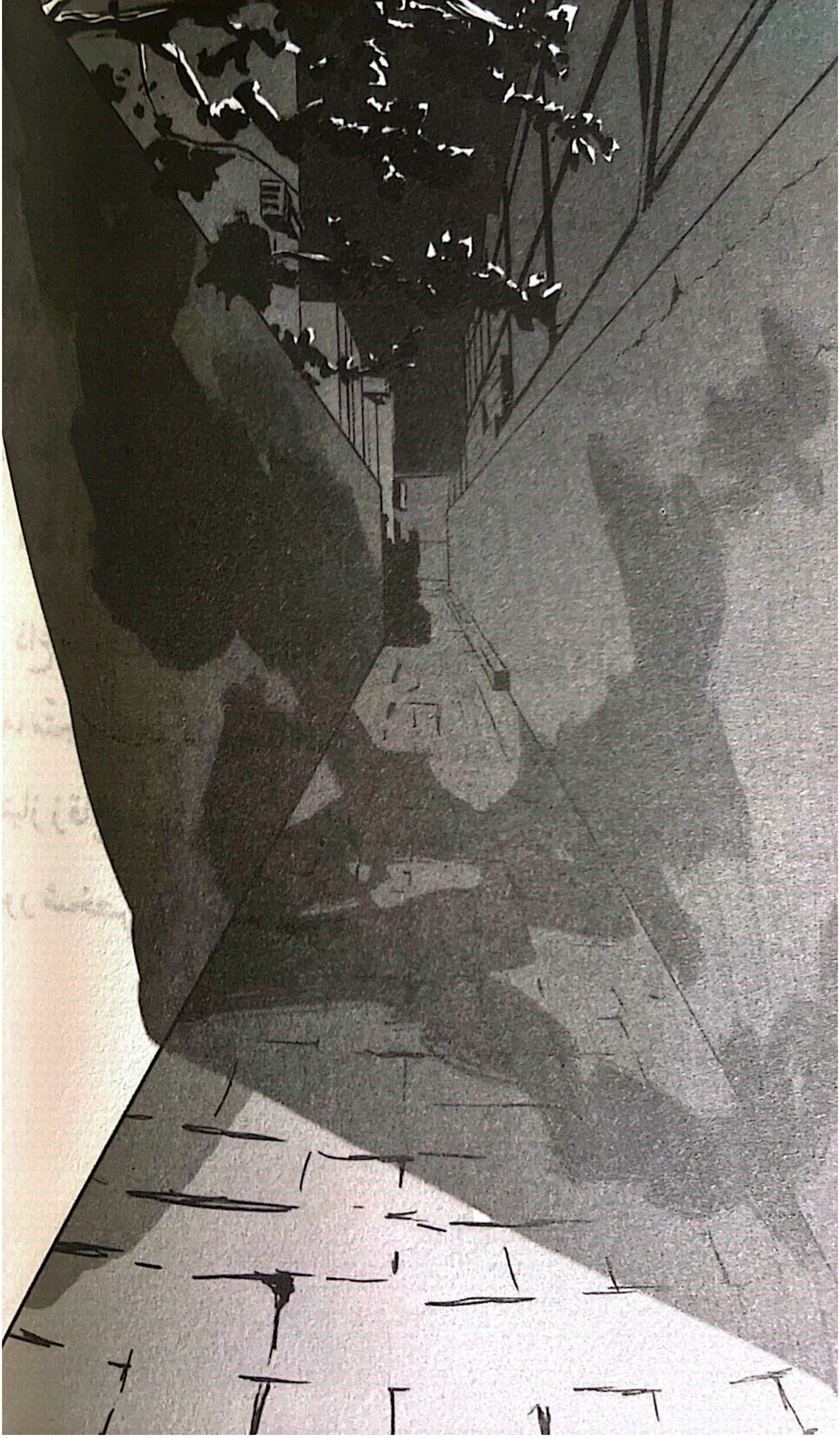
قبل المكالمة بشهر

بشر بلا قلوب

تلثم الكهل بشماغه المهترئ وقد غطى جسده الفراء بالكامل، لم يعد يظهر منه سوى عينيه اللتين ترهلت أجفانهُما. الرياح الشتوية تشتد وتتلاعب بفرائه الذي ثبته بيديه جيدًا، خشية أن يتسلل البرد لعظامه التي وهنت ولانت.

«الله أكبر، الله أكبر»

ذاع صوتُ الأذان في الحي مما شجع العجوز أن يتحرك من ناصية بابه، متّجهًا نحو المسجد الذي تراءت مئذنته من بعيد. توجب عليه اجتياز زقاقٍ ضيق للوصول للمسجد، أحد تلك الأزقة التي تسمح بعبور شخصٍ واحدٍ فقط.



حثَّ الخُطا نحو الزقاق المظلم، الذي أنارت إضاءة الشارع بدايته فقط... سيكون حتمًا أدفأ من الشارع المكشوف الذي خلا من السيارات والمارة.

«الصلاةُ خيرٌ من النوم، الصلاةُ خيرٌ من النوم»

كم كانت تلك العبارة مطمئنةً لأولئك الذين يخرجون بأوج الشتاء لصلاة الفجر، قاطعين لذة نومهم غيرَ مبالين بالبرد القارس... فردد الرجل العجوز بعد أن دخل الزقاق:

«الصلاةُ خيرٌ من النوم، الصلاةُ خيرٌ...»

قطع ترديده بعد أن ارتطمت قدمه بشيءٍ على الأرض، دقق النظر على الأرض وتراجع بضع خطواتٍ للوراء... فاتحًا عينيه على مصراعيهما وهو يسد فمه حتى لا يصرخ.

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»

رمَش عدة مراتٍ ليتأكد مما تراه عيناه، متمنيًا مع كل رمشةٍ أن يختفي ذاك الذي على الأرض! لم يعُد هناك مجالٌ للشك، كان يراه بوضوحٍ رغم ضآلة الضوء القادم من الشارع.

على أرضية ذلك الزقاق، همدَ طفلٌ لم يتجاوز السابعة من

عمره... غارقًا بدمائه الجافة! كان ثوبُه مفتوحَ الأزرار مكشوفَ الصدر، لتتفجرَ منه شلالات الدماء التي قد تجمدت وجفّت... بحلول ذلك الوقت ومع برودة الجو. شحبَ وجهه الأبيض وابتلت أجزاءٌ من شعره الأسود الناعم، بعينين مغمضتين ويداه على جانبي جسده.

اقتربَ الكهلُ وجسده يرتعش بالكامل، ليس جراء البردِ قط... بل من هول المنظر الوحشي الذي وقعت عيناه عليه. نظرَ إلى الفجوة التي أحدثها المجرم بصدر الطفل، وقد تناثر منها بعض أحشاء الصبي الصغيرة!

لحظة... أتلك جثة أخرى مستلقية بجانب الطفل؟! دقّقَ النظر ليتأكد حينها، جثة أخرى ولطفلة أيضًا!

كان ذاك كثيرًا على الكهل وعينيه اللتين لم تريا شيئًا كهذا ولا حتى في الأحلام، تراجع للخلف بسرعة ليغادر الزقاق ويخرجَ هاتفه... بدأت يداه المرتجفتان بالضغط على لوحة الأرقام لطلب النجدة.

«٩١١، كيف لي أن أساعدك؟»

أتاه صوتُ الحياة عبر الهاتف، لم ينتظر ثانيةً وانطلق:

«جـ.. جـ.. جثة، طـ.. طـ.. طفلان، ز.. زقاق»

«سيدي سيدي سيدي، أريدك أن تهدأ قليلًا وتهدّئ من روعك... أتقول لي أنك رأيت جثة؟»

«جـ.. جثة لـ.. لطفلين»

«حسنًا سيدي، أيمكنك أن تخبرني أين موقعك بالضبط؟»

«حي.. حي (أم العراد)، الزقاق بجانب تموينات (...)»

«حسنًا سيدي، اهدأ وسنرسل قوات الأمن الآن... هل تستطيع العودة لمنزلك؟»

سقط الهاتف من يد العجوز ودبَّ الرعبُ بقلبه فوق رعبه، فقد لاحظ للتو القلبين المعلقين فوق جثتَي الطفل والطفلة.... أهذه قلوبهم منتشلة من أجسادهم؟!

(الطائف)، (النزهة)

قبل المكالمة بأسبوعين

أفئدة تتأرجح

«أقسم لكِ أنه قالها هكذا بكل برود!»

قالت الفتاةُ بحنق، مطلقةً تنهيدةً عميقة... ارتجف معها فكها من شدة البرد.

«حذرتك قبل أن تدخلي هذه العلاقة الغريبة، لا خير في الحب!»

ردت صديقتُها وهي تمشي في الشارع بلا مبالاة، محتسيةً قهوتها السوداء الساخنة... وكأنها هي التي ستُشعِرها بالدفء في ذلك الجو القارس.

كانتا تمشيان بذاك الشارع الواسع الذي امتلأ بالمحال التجارية يمنةً ويسرة، وقد أُغلِقَ معظمها بحلول منتصف الليل. بمعطفَيهما الأحمر والأسود، وبساطة ذاتِ المعطف الأسود في اللباس وبذخ الأخرى... بدتا مختلفتَين في الاهتمامات بالكلية... وكأن إحداهما طبيبة كرست حياتها للعلم والأخرى لا تكترث إلا بمظهرها.

فاقت ذات المعطف الأسود صديقتَها طولًا، لتحتوي صديقتها بذراعها بعد أن كسر الحب قلبها... كما هو الحال دومًا بين الصحب

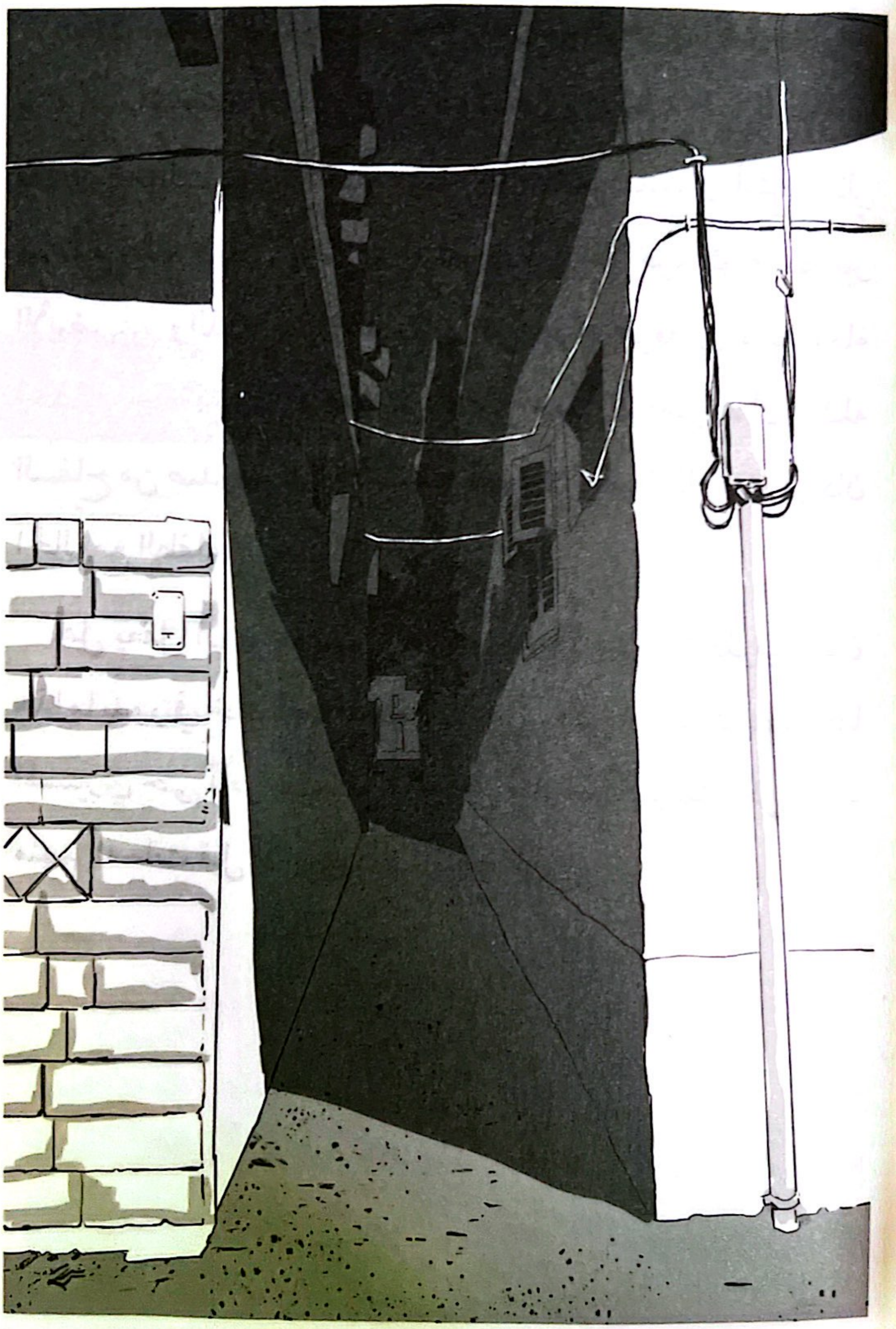
الذين يحذرون بعضهم من الوقوع في الحب ويعودون متباكين لبعضهم البعض.

تجاوزتهما سيارة رياضية فارهة بسرعة جنونية، مما أدى لتوقف ذات المعطف الأحمر وصراخها بهستيرية... بعد أن مر شريط حياتها أمامها. قالت وهي تلتقِطُ أنفاسها ودقات قلبها تتسارع، واضعةً يدها على صدرها:

«اصفعيني مرة أخرى إن فكرت أن نخرج في مثل هذا الوقت من الليل!»

شعرتْ بيد صديقتها ترتجف دون أي رد منها، ألقت نظرةً عليها لتراها تبحلق النظر لليمين بصدمة وعدم تصديق... مقطبةً حاجبيها. كوبُها قد سقط من يدها، وانفتح غطاؤهُ لتنسكبَ قهوته ويتشربها الإسفلت البارد. ما هي إلا لحظات حتى وقعت عيناها على ما رأته رفيقتها، لتطلقَ صرخةً سمعها الحي بأكمله.

على يمين الفتاتين، في زقاقٍ ضيق... تدلى قلبانِ من أعلى الزقاق، انتُزِعَا من أجساد أصحابها بلا رحمة... لتتلاعب بهما الرياح. همدَ تحتهما ذانك الطفلان، طفلٌ وطفلة لم يتجاوزا السابعة من أعمارهما... بأجسادهما الخالية من الأرواح والقلوب!



قبعت الطفلة السمراء بمريولها المدرسي الزهري الذي تناثرت عليه الدماء، وشعرها المضفر الأسود الذي خالطته حمرة الدماء... بعد أن أُحدِثَت فجوةٌ عميقةٌ بصدرها المكشوف... في أبشع منظرٍ قد تقع عليه العين. بجانبها استقر الطفل الآخر، بثوبه الصغير الأبيض... والذي تحول للون الأحمر جراء غرقه في بركة دماء أحشائه الجافة! قلبُهُ المتوقف عن النبض معلقٌ فوقه، بعد أن انتشله السفاح من صدره وقد أحدث فيه الفجوة العميقة ذاتها... كما كان الحال مع الطفلة.

هل يعقل أن يوجد بشرٌ بهذه الوحشية؟ بشرٌ بلا قلوب! كان هذا ما يدور في خلد ذات المعطف الأحمر، والتي استمرت بصراخها الهستيري حتى أخرجت أهل الحي من منازلهم... ليتمنى كل واحد منهم أنه مات قبل أن يرى ذلك المنظر المروع.

(الطائف)

ربيع الأول، ١٤٣٦ هـ

هبوط

«أعزاءنا الركاب، الحمدلله على سلامتكم... نيابةً عن كابتن الطائرة والفريق نرحب بكم في مطار الطائف الدولي حيث التوقيت المحلي ١٠ صباحًا ودرجة الحرارة الخارجية ١٢ درجة مئوية»

هرع ركاب الطائرة لأمتعتهم استجابةً لنداء المضيف عبر المكبرات، بينما جلستُ على مقعدي بكل روية وهدوء... ناظرًا من نافذة الطائرة التي هبطت واستقرت حركتها. لم أعلم أبدًا سبب عجلة الركاب بكل رحلة، يقفون بانتظار بوابة الطائرة التي لم تفتح بعد... وقد يتأخر فتحها لأسباب لا أعلمها إلى الآن... بينما كان بإمكانهم الاسترخاء والهدوء إلى أن يخلو الممر ويرحل الجميع... كما أفعل أنا. ولِمَ أستغرب والعجلة من خصال النفس البشرية، وقد خالفتُها أنا ببرودي وهدوئي منذ الصغر... مما جعل والديّ - رحمهما الله - يعانيان مني كثيرًا. لم يقتصر الأمر عليهما فحسب، بل على كل من حولي مما جعلني وحيدًا دون أصدقاء... وجعلني عازبًا بعد سنواتٍ طويلة حاولت فيها إنجاح علاقتي مع طليقتي.

نهضتُ لأحمل حقيبتي الصغيرة بعد خلو الممر، لائمًا عقلي الذي يرهقني بالتفكير دومًا. بمجرد مغادرتي للطائرة ونزولي على السلالم، استغل الهواء القارس الفرصة للتسلل لعظامي... بعد أن رآني مرتديًا ثوبًا أبيض صيفيًّا وكأنه يريد الانتقام مني لعدم احترام برودته.

أطلقتُ تنهيدةً عميقةً وأنا أنظر لمبنى المطار الصغير، (الطائف)... ها نحنُ ذا مجددًا! لا أعلم إن كان وجود هذه القضية في هذه المدينة من حسن حظي أو سوئه، فطفولتي ومراهقتي وسنوات طوال في عملي كانت هنا... مما جعلها تحمل خليطًا ضخمًا من الذكريات السيئة والجيدة.

لا وقت لهذا الهراء الآن فهناك من ينتظر تحقيق العدالة، حزمتُ أمري وهرعتُ لمبنى المطار لأستأجر سيارة... ليس الأمر وكأني أنا البطل المنقذ الذي سيحل القضية... لكن عامل الوقت ليس في صالحنا أبدًا وقد يهجم السفاح بجريمةٍ وحشية أخرى في أي لحظة من الآن.

أنهيتُ الإجراءات سريعًا وأخذتُ المفتاح، لأحث الخطا نحو السيارة البيضاء الصغيرة التي اخترتها. انتظرتُ حتى أنهى العامل

فحصها، ناظرًا لانعكاس وجهي الذي أكل عليه الدهر وشرب... على إحدى نوافذ السيارة. على الرغم من محافظتي على مواعيد زيارة الحلاق واهتمامي بلحيتي الكثيفة وشاربي، إلا أني أشعرُ دائمًا بتخييم البؤس على وجهي... منذ المراهقة وحتى الآن بعد انتصاف عمري. لربما كان السببُ الشيب الذي خالط رأسي، واختبأ تحت شماغي... سابقًا أوانه.

«السيارة جاهزة يا سيدي»

قاطع العامل حبل أفكاري وهو يسلمني ورقة التأجير.

ركبتُ السيارة وانطلقتُ مباشرةً، أرجوك يا عقلي لا تشغلني بأفكارك وتحليلاتك الغريبة. غادرتُ المطار لأتجه لمبنى التحقيق، بتلك السيارة الصغيرة التي بالكاد اتسع مقعدها لي.

يا الله ، كمية الذكريات التي راودتني في طريق المطار وجعلت قلبي يخفق بشدة من الألم! كيف سأتحمل المكوث حتى انتهاء القضية، وكل ذكرياتي معها كانت هنا... في هذه المدينة الصغيرة؟ مع الفتاة التي خاطبتها قصيدة قيس (المؤنسة).

تراءى لي مبنى التحقيق المهيب الذي لم يتغير منذ غادرت، للأمانة لم ألحظ تغيرا كبيرًا بالمدينة حتى الآن. بدأتُ بالتباطؤ حتى

أصبح المبنى على يميني، لأقف عند الحراس بأسلحتهم ولباسهم العسكري... وأريهم بطاقتي ليسمحوا لي بالدخول ويوجهوني للمكان المطلوب.

ألقيتُ نظرةً أخيرةً على هيئتي بزجاج السيارة بعد التوقف، تعديلٌ بسيطٌ لشماغي الأحمر وعقالي... وكنتُ جاهزًا لمقابلة فريق التحقيق. دائمًا ما يكون الانطباع الأول هو الأهم في أي عمل، لم أكن لأدع فرصةً ليؤخذ عني انطباعٌ سيئ... لا سيما وقد تم اختياري بين المئات للتحقيق في هذه القضية الشائكة. دخلتُ المبنى لأرى شابين بدوا في منتصف العمر، بينما وقف بعيدًا عنهما من بدا في الخمسينات من عمره... واعتقدتُ أنه العقيد (رعد).

«الرائد (أديم أحمد)، تفضل»

قالها الخمسيني بنبرةٍ رسمية، وقد نبت على وجهه الأبيض لحيةٌ خفيفة بيضاء وشاربٌ كث.

أومأتُ له وأنا أتقدم نحوه لأصافحه بحرارة، ليعرفني بهم سريعًا وهو يقول:

«معك العقيد (رعد)، وهُنا الرائد (سراج)»

أشارَ للشاب الأسمر الحليقِ اللحية والشارب، وقد كسا جسده

ثوبٌ أسود وغطى رأسه شماغٌ أبيض... لأصافحه وهو يتفحص عيني بابتسامة. امتلك (سراج) أحد تلك الوجوه البشوشة التي يطمئن القلب عند رؤيتها، وتشعر أنك تعرفه منذ مدة طويلة.

«وهنا المقدم (عامر)»

أشارَ للآخر الذي ميزته عيونه العسلية اللامعة، والشيب الذي خالط سكسوكته على بشرته البيضاء.

صافحني ببرود ورسمية تامة كـ(رعد) بالضبط، مما لا أمانعه بصراحة... فأنا أكن الاحترام للجميع طالما لم يمسوني بأذى.

«حسنًا يا رجال، سأدخل في صلب العمل مباشرةً لأن القضية لا تحتمل التأخير البتة... تفضلوا بالجلوس»

قال العقيد (رعد) ليزيد احترامي له أكثر وأكثر، لا أحب تضييع الوقت في الحديث الفارغ بينما تُهَدَّدُ حياة أحدهم في وطننا الذي تعهدنا بحمايته. جلسَ كلٌّ منا على مكتبه المخصص باسمه وبدأ العقيد (رعد) بالحديث، ممسكًا جهاز التحكم بالشاشة المعروضة أمامنا وقد توسطتها جملة «سفاح الأزقة»:

«كما تعلمون، تم اختياركم لتكونوا ضمن فريق التحقيق السري

لقضية (سفاح الأزقة)... بعد أن اتضح أننا في مواجهة قاتلٍ متسلسل»

سرت رعشةٌ في جسدي بعد عبارته تلك، فقد وضع الجميعُ ثقتهم فينا نحن الأربعة بعد الله... وكم كان هذا مقلقًا وجالبًا للتوتر.

«إليكم معطيات القضية وما توصلت إليه السلطات حتى هذه اللحظة، حدثت الجريمة الأولى للطفلين (أنس) و(أسيل) في زقاق بحي (أم العراد)»

ظهرت الصور التي جعلت قلبي يخفق بشدة، على الرغم من رؤيتي لها من قبل على الأخبار إلا أنها كانت تدمي القلب. قبع (أنس) بثوبه الأبيض الصغير وقد فتحت أزراره، لينتزع المجرم قلبه من صدره بعد أن أحدث فجوةً فيه... ليعلقه بعد ذلك فوق جثته بخيطٍ رفيعٍ بلا رحمة وكأنه يتفنن في جريمته.

أما (أسيل) الصغيرة بشعرها البني المضفر، فقد استلقت بمريولها الزهري المفتوح الصدر... ليمارس المختل عمله الوحشي عليها أيضًا منتزعًا قلبها الذي لم يكتمل نموه بعد.

«لم يعتقد رجال الأمن أنهم أمام قاتل متسلسل سيباغتهم بجريمةٍ أخرى بالنمط ذاته، حتى ارتكب فعلته الشنيعة بالطفل (داوود) والطفلة (غدير)... في زقاقٍ آخر بحي (النزهة)»

ظهرت صور الجريمة الثانية التي لم تقل وحشية عن الأولى، ولم يكُن ليقل أثر وقعها على النفوس لتكرارها. من دون حولٍ ولا قوة، تمدد الطفلان تحت البرد الشديد وقد فارقت أرواحهما أجسادهما... بأعينهما المغمضة وأيديهما بجوار أجسادهما.

«كما ترون أو رأيتم سابقًا على الأرجح، نحن في مواجهة مختل يتصيد الأطفال الذين لا يتجاوزون السابعة من أعمارهم... مما يجعلهم في الصف الأول الابتدائي. يختار طفلًا وطفلةً في جريمته ليقتلهما أولًا بحقنهما بكميات كبيرة من (المورفين(*)) وفقًا لتقرير الطب الشرعي، ثم يمارس جراحته المتقنة على أجسادهما لينتشل قلوبهما ويحتفظ بها مع جثثهما في ثلاجة حتى لا تتعفن... إلى أن يحين موعد إظهاره لفنه الإجرامي فيضعها باحترافية في أحد الأزقة».

---

*) المورفين: هو مسكّن ألم قوي من فئة الأفيونيات. يعمل المورفين بشكل مباشر على الجهاز العصبي المركزي لتقليل الشعور بالألم. يمكن استخدامه لكل من الألم الحاد والألم المزمن.

توقف العقيد قليلًا ليلتقط أنفاسه ويتفرس وجوهنا، بينما أرهقت تلك الصور عقلي لألجأ لعادتي وقت التوتر أو التفكير... التقليب بين قطعتَي النرد اللتَين أحملهما في جيبي دومًا.

«الطفل (أنس) في الجريمة الأولى و(داوود) في الجريمة الثانية من المدرسة الابتدائية نفسها، وهذه المعلومة المفيدة الوحيدة التي توصلوا إليها... لا يترك اللعين خلفه أي أدلة... هل من أسئلة؟»

سأل الرائد (عامر) ونظره لصور الضحايا:

«ماذا عن حياة الضحايا؟ في المدرسة وفي البيت وغيرهما؟»

أجاب (رعد)، هازًّا كتفيه:

«عادية جدًّا، كل الأطفال كانوا متفوقين دراسيًّا ويعيشون حياةً رغيدةً مع أهليهم»

نطقتُ مقطبًا حاجبيّ، وأنا أدقق النظر بجثة الطفل (داوود):

«ربما هذا ما جعل الاختيار يقع عليهم»

أثارت النقطة هذه استغراب الفريق، وحولت أنظارهم نحوي بانتظار تفسيرٍ لما قلت... لكن (سراج) سبقني وقال:

«يقصد أن هذا ما جعل المجرم يختارهم بين جميع الأطفال في

المدرسة، لأنهم متفوقون وينعمون بحياةٍ رغيدة فكأنه يريد إثبات فكرةٍ ما... ربما ينتقم من المجتمع بقتلهم؟»

قفزَ بعده (عامر) بسؤاله بعد أن تكونت لدى الجميع فكرةٌ عما قلت:

«هل كانوا الأفضل على مستوى مدرستهم، أو فصلهم على الأقل؟»

لمعت عينا العقيد (رعد) إعجابًا بتضامن الفريق وسرعة البديهة ليقول:

«لهذا ستبدأ مهمتنا بزيارة مدارسهم غدًا، ونكثف جهودنا في النظر لمدرسة (أنس) و(داوود) بشكل خاص»

خيم الصمت على الغرفة وغرق كل منا بأفكاره، محاولين الوصول لدافعٍ معقولٍ يجعل أحدهم يسلب هذه الأرواح البريئة.. ويتفنن بالتمثيل بأجساد طيور الجنة!

«ماذا عن آباء الأطفال وذويهم، هل امتلك أحدهم عداوات سابقة؟»

قاطع (عامر) دائرة الصمت المخيمة على الغرفة، متلاعبًا بسكسوكته التي خالطها الشيب.. مما أعطاه منظرًا مهيبًا لائقًا بضابط في المباحث.

حرك (رعد) رأسه بالنفي مجيبًا:

«حيواتهم عادية للغاية في عملهم ومع أقاربهم، مسالمون مع الجميع وكل من حولهم يذكرونهم بالخير... لكن من أراد أن يزورهم مرة أخرى فله ذلك... ربما يقع على شيءٍ فات رجال الشرطة. بإمكانكم الانصراف الآن لأخذ قسطٍ من الراحة، وغدًا في الصباح الباكر سيكون موعدنا وسنقسم المدارس بيننا... فليأخذ كل منكم نسخته من ملف القضية قبل المغادرة»

أنهى (رعد) الاجتماع وهو يغلق الشاشة لتختفي صور الضحايا، بعد أن انحفرت في أذهاننا جميعًا ولن تغادرها إلا مع مغادرتنا لهذه الدنيا.

أطلقَ الرعد هزيمه بقوة، وكأنه يطلب منا العثور على الجاني بأسرع وقت... ويحذرنا إن لم نقم بعملنا على أكمل وجه. لم تتحمل الغيوم زمجرة الرعد وأسقطتْ زخات المطر الغزيرة، وكأنها تبكي على الأطفال الذين لم يلبثوا ليرتكبوا ذنبًا على هذه الأرض. استلمتُ ملف القضية وغادرتُ المبنى على عجل، لأركض نحو سيارتي وقد أخذ ثوبي وشماغي نصيبهما من المطر المنهمر.

انطلقتُ مباشرةً في طريقي ومساحات الزجاج تعمل بأقصى سرعة، مقاومةً قطرات المطر المتساقطة. عدتُ لمساري في طريق

المطار بعد خروجي من مبنى التحقيق المصفح، بسيارتي الصغيرة التي بدت خجولةً من دخولها مبنًى مهمًّا وكبيرًا. كعادتها، لم تكن مدينتنا الصغيرة مزدحمة لا سيما في توقيتٍ كذلك... الحادية عشرة والنصف صباحًا.

ومضَ البرق أمامي في الطريق تحت ظلمة الغيوم التي حجبت الشمس، ليظهر ما أسقطَ قلبي من مكانه... الطفل (أنس)! مستلقٍ على الشارع بعينيه المغمضتين، وتلك الفجوة المستقرة وسط صدره المكشوف. حدتُ بسيارتي لليمين بعنفٍ حتى أتجنب دهسه، مما جعل السيارة بجانبي تصم أذني ببوقها بعد اقترابي منها بشدة. رمشتُ ليتلاشى وجوده تمامًا من على الطريق، إحدى ألاعيب عقلي اللعينة تداهمني مجددًا... سحقًا! أخذتُ نفسًا عميقًا ويدي على قلبي المتسارع، بعد أن كدتُ أتسببُ بحادثٍ شنيع.

يعتقدُ الناس أن ما نراهُ من عنفٍ ودموية في القضايا، سيخفف وقعها علينا حتى نفقد الإحساس تمامًا... يالسخف هذه النظرية التي وضعتها السينما عن رجال الأمن والتحقيق! إذا وصلت لمرحلة فقدان الإحساس عند رؤيتك للجرائم، فتحقق من إنسانيتك.

هدأتُ من سرعتي وأخذتُ المخرج، انعطفتُ لليمين وتعمقتُ داخل حيِّنا.. وما هي إلا لحظات حتى توقفتُ أمام بيتنا. مهلًا، ما

الذي أفعله أنا ببيتنا القديم؟! بيتي القديم بالأصح، فقد خسرتُ الحق باستخدام (نا) المتكلمين... بعد انفصالي عن (أسرار). توقفتُ هناك متأملًا البيت تحت المطر المتساقط، وكأني أتمنى ظهورها أمامه لتدعوني للداخل... تدعوني لبيتي الذي همد هناك دون مشترٍ ليحييه ويعمره منذ ثلاث سنوات. تدعوني لفنجانٍ من قهوتها السوداء التي تملكت طعمًا خاصًا، ليس لطريقة تحضيرها المتميزة بل لأنها من يدها هي... كنتُ أشتمُّ رائحة يدها في القهوة... وفي كل شيء تصنعه.

ألقيتُ نظرةً على الشرفة المبتلة التي قبعت موحِشةً بعدنا، وكأنها تخيف المشترين وتنفرهم لأنها تريدنا نحن... نحن فقط من ستسمح له أن يستمتع بها ويخطو على بلاطها. مراكن الزرع المتفرقة التي زانت المنزل يومًا ما، قد قتلها العطش وباتت ذابلةً بائسة... في أقسى معاني الحداد على الثنائي الذي كان يسقيها يوميًا. ما كان عريشُ العنب في الفناء الأمامي، ليتركَ الأزهار والنباتات في الشرفة تموت وحدها... فواساها بجفاف أوراقه المعلقة على العريش الخشبي... وقسوة أغصانه التي رثت فراق قاطنيها على مر السنين.

لم أكُن لأدعَ عقلي يستحوذ علي أكثر من ذلك، ليوصلني للحظات الندم التي قد تجعلني أفعل شيئًا جنونيًا... يبدو أن قدومي للطائف

وقبولي لهذه المهمة كان غلطة. استدرتُ وتحركت نحو وجهتي الأصلية، شقة أختي التي لحسن الحظ كانت بنفس الحي.

أوقفتُ سيارتي أمام عمارتها ودخلتُ على عجل، حاملًا ملف القضية الذي خفتُ أن تنال منه قطرات المطر فتفسده... ساحبًا حقيبتي السوداء الصغيرة. توقفتُ أمام شقتها الأرضية وطرقتُ الباب بشدة، وقطراتُ الماء تتساقط من شماغي وثوبي المبتلين على الأرض.

«من؟»

جاء صوتُ طفلةٍ صغيرةٍ من الداخل.

«اللص»

أجبتُ بعبارتي الشهيرة عندما تسألني هي السؤال ذاته دائمًا.

فتحتِ الباب بحماسٍ وحملتُها عاليًا بمجرد رؤيتي لها، وهي لا تزال ترتدي مريولها الدراسي الزهري... وقد ربطتْ لها أمها شعرها الطويل على هيئة ذيل الحصان.

«لم تخبرني أمي أنك ستأتي للطائف يا خالي!»

قالت وهي تتلاعب بعقالي، لتلقي نظرةً على أمها الواقفة بعيدًا... وابتسامتها لا تفارق محياها كما عهدتها.

«أراد أن يجعلها مفاجأة»

قالت أمها بهدوئها المعتاد، منحنيةً ببطنها المنتفخ لتلتقطَ آيباد ابنتها الملقى على الأرض... يكسوها قميص الحوامل الواسع الأزرق.

دخلنا الشقة وأغلقتُ الباب خلفي، لأضعَ (نسمة) أرضًا متجهًا لأختي (أبرار).

لم يترك لي والداي إخوةً سوى (أبرار) التي تكبرني بسنتين، وقد كفتني عن مئة أخٍ وأخت. ربما تبدو علاقتي معها سطحية للجميع، لأننا لا نعبر عن مشاعرنا بالكلمات أو الأحضان أو أحد المعايير التي وضعها المجتمع... من كثرة التواصل أو الحديث. لا أعرف كيف أصف علاقتنا بالتحديد، كل ما أعرفه أن قلوبنا قريبةٌ من بعضها.

و(نسمة) ابنتها الوحيدة - التي سترزق بأختٍ قريبًا - فهي نسخةٌ مصغرةٌ من أمها، الشعر الأسود الناعم وهيكل الوجه المستدير ذاته... والأنف الحاد الطويل والعينان البنيتان الواسعتان التي نمتلكها أنا و(أبرار). قالت وهي تصافحني وتقبل خدي، واضعةً يدها اليسرى على بطنها المنتفخ:

«الحمدلله على سلامتك»

قلتُ مادًا يدي أمام بطنها، مخاطبًا الطفل القابع خلف جدران رحمها... والذي أوشك على الخروج لعالمنا:

«سلمك الله، كيف حال الجميع؟ وكيف حال الضيف الجديد بالأخص؟»

جاء صوت الطفلة الغيورة من أختها التي لم ترَها بعد، مقطبةً حاجبيها وهي تمشي نحو غرفة المعيشة ذات الطابع العصري:

«هذا سخيف، هي لا تسمعك ولا تفهمك»

«أعانك الله»

غمزتُ لـ (أبرار) التي حركت كتفيها باستسلام، تجاه الغيرة الطبيعية العالمية بين الأطفال.

«كلنا في خير حال ولله الحمد، و(منذر) يعتذر منك لانشغاله في عمله. جهزت لك غرفتك إن أردت أخذَ قسطٍ من الراحة»

أشارت لغرفةٍ قريبةٍ من باب الخروج، دخلتُ الغرفة لأضعَ متاعي قائلًا:

«أسأل الله أن يرزقه الصبر، أما زال يعاني من تلك الشركة السيئة؟»

كان (منذر) - زوج (أبرار) - أحد ضحايا الشركات، أجابت وهي تتجه نحو غرفة المعيشة:

«وهل ستكف أي شركةٍ في العالم عن اتجارها بالبشر؟»

أطلقتُ ضحكةً عاليةً على مسماي المعتاد لمعاملة الشركات السيئة لموظفيها، كنتُ قد أطلقتُ هذا المسمى قديمًا ويبدو أنه أعجبها. أسميتُ معاملة الشركات المجحفة مع موظفيها وقلة رواتبهم وأيام إجازتهم، اتجارًا بالبشر... مما ينطبق على كثيرٍ منها في يومنا الحالي.

«لا تهربي! سأبدل ملابسي وآتيك»

أشرتُ لـ (نسمة) التي ابتسمت في المقابل، وقد بدت مرهقةً بعد العودة من المدرسة... المسكينة لا تعرف بعد عناء امتحانات المتوسطة والثانوية... ومن ثم كوابيس الجامعة اللامنتهية.

أغلقتُ باب الغرفة ووضعتُ ملف القضية جانبًا، لأخلع ملابسي وأرتدي كنزةً صوفية سوداء وبنطال جينز أزرق. قضيتُ حاجتي في الحمام وغسلتُ وجهي، ليرتفع نظري للمرآة ويتجمد الدم في عروقي! استلقت الطفلة (أسيل) خلفي بشعرها البني المضفر، وفجوةُ صدرها توسطت بين أضلعه! فركتُ عيني بشدة وفتحتها لتختفي من بلاط الحمام، استندتُ بأذرعي على المغسلة ملتقطًا أنفاسي... ناظرًا الشعري الفوضوي الذي خالطه الشيب... وكأن الشيب ظهر للتو بعد رؤيته لهؤلاء الأطفال. حاولتُ ترتيب شعري، متنهدًا بعمق... عالمًا تمامًا بما سيداهمني في قادم الأيام من كوابيس.

***

«لكن كلامكِ غير معقول البتة!»

قلتُ لأبرار، ضاحكًا ملاعبًا شعر (نسمة) التي قد غلبها النعاس في حجري، ببيجاما نومها الزرقاء.

رمقتني (أبرار) بنظرتها التي لا تزال تفزعني، من طفولتي وحتى عمري الحالي الذي تجاوز الثلاثين. عندما تعطي نظرتها تلك لأي أحد، فعليه التوقف عن مجادلتها وإلا ستصب جام غضب يومها المتراكم عليه... لا سيما الآن مع حملها لإنسانٍ في بطنها.

تبادلتُ النظرات مع زوجها (منذر) الذي كتم ضحكته، مشيرًا لي بالسكوت ظنًّا منه أني لا أعرف معنى تلك النظرة... هيهات يا (منذر) فطفولتي امتلأت بتلك النظرات.

«لن أكمل هذا النقاش العقيم معكما، لا أحد يكترث برأيكما عنها»

امتعضتْ (أبرار)، مستعينةً بالوسادات لتقف... بجسدها الثقيل المنتفخ.

اتجهت نحو غرفة نومها بغضب، دون أن تنبس ببنت شفة. حبها الشديد بل تقديسها لإحدى مؤثرات مواقع التواصل الاجتماعي جعلها تنفعل حين سخرنا من عقلها وتفكيرها، فما كان مني أنا و(منذر) إلا الاستمرار بالسخرية.

غزا الصمت غرفة المعيشة التي خفضت أضواؤها، واستقرت كؤوس الشاي الفارغة حول الأرائك... والتلفاز الكبير يعرض أحد أفلام الكرتون. (نسمة) نائمةٌ على حجري ورأسها موجه للشاشة، بينما جلس (منذر) بقميص نومه على اليمين... متأملًا التلفاز المكتوم الصوت سابحًا بأفكاره. كانت ليلة من الليالي العائلية الرائعة، المليئة بالأكل والشرب والضحك حتى الفجر... وفي هذه الحالة حتى انتصاف الليل. بين أحاديث الذكريات لآخر المستجدات، يتخللها مواقفُ غبية أو محرجة من أحد أفراد العائلة... تلك اللحظات لا تقدر بثمن. ربما أبالغ في وصفها لأني فقدتها في طفولتي، فلم يكن لي أنا و(أبرار) العائلة الحميمية التي يتمناها كل طفل. كانت لحظاتنا الأسرية الجميلة هي عند عدم حدوث شيء، عند عدم سماعنا لصراخ أمي، أو ضرب أبي لها، أو مغادرتها المنزل، أو شجار أخوالي مع أبي.

«تصبح على خير، لا أريد النوم في الشركة كما حدث اليوم... هلا أخذتُ عنك (نسمة)؟»

قال (منذر) قائمًا، ملاعبًا شاربه الكثيف وقد كسا عينيه التعب.

«لا مشكلة، سأضعها أنا في سريرها»

قلتُ مغلقًا التلفاز. اتجهتُ لغرفتها الصغيرة التي تناثرت في زواياها الدمى والدببة المحشوة، وضعتُها على سريرها بين دميتيها الصغيرتين... لأغطيها ببطانيتها التي امتلأت عليها رسوم الدببة. كل شيء في الغرفة نال نصيبه من دب محشو أو دمية، حتى سريرها امتلأ بملصقات لهم.

أطفأتُ الإضاءة وذهبتُ لغرفتي، فقد أنهكني السفر ولم يعد عقلي مواكبًا للحظة... ناهيك عن عيني اللتين غلبهما النعاس. اضطجعتُ واختبأتُ من البرد تحت بطانيتي بعد تأكدي من عمل المدفأة، أغمضتُ عيني لأستمع للرياح التي سهرت وحدها في الخارج... تتغنى بصوتِها بعد أن تخلصت من المارة والسيارات ببرودها.

تدريجيًا، غصتُ في النوم وأنا أتقلبُ في فراشي مع غناء الرياح.. في اللحظة التي ينسى بها البشر هموم يومهم الطويل المتعب ومشاغلهم. أرى زقاقًا ضيقًا بعيدًا، دققتُ النظر وأنا أمشي نحوه تحت البرودة القاسية... ليتدلى قلبٌ معلقٌ يقطرُ دمًا أمام عيني مباشرةً! فتحتُ عيني لاهثًا منقلبًا لجانبي الأيسر كما جرت العادة، لأرتمي على الحضن الدفيء الذي احتواني دائمًا.

لا أحد، لم أرَ سوى حمام الغرفة الذي تسلل منه القليل من الضوء... أين ذهبتْ؟ تساءلَ عقلي اللعين باستغباء، وكأنه يغيظني ويسخر مني في كل مرة... قبل أن أستوعب أنها لم تعُد معي. وضعتُ يدي على قلبي المتسارع، لكنها كانت عديمة التأثير عليه. (أسرار) وحدها بين كل البشر، هي من تستطيع تهدئة قلبي المتسارع وتطميني... بلمسةٍ واحدة من يدها الناعمة. ألحّت هي بشدة على موضوع الإنجاب، حتى أنها أسمت ابنتنا المستقبلية... (أغصان). بينما عارضتُ أنا موضوع الإنجاب بشدة، فلم أكُن مستعدًّا للأبوة والتربية.

أكان السبب في هروب النوم من عيني ظهور ذلك القلب الدامي في مخيلتي، أم حقيقة أن مصدر الأمان الخاص بي قد رحل... لم أعلم. لمحتُ ملف القضية ملقًى بجانبي وعلمتُ أن الوقت قد حان، لن أضيع الليل بطوله باكيًا على علاقتي المتدمرة والسفاحُ طليقٌ يجوب الأرجاء.

تناولتُهُ ونهضت، أخرجتُ علبةً صغيرةً من حقيبتي وجلستُ أرضًا بجانب المدفأة... متكئًا بظهري على الحائط. على الرغم من وجود طاولة بزاوية الغرفة، إلا أني من أولئك الأشخاص الذين

يفضلون الجلوس أرضًا. بدأتُ بتوزيع الأوراق على الأرض، واضعًا كل جريمة على حدة بصورها ومعلوماتها الكاملة. على الرغم من وحشية الصور وبشاعتها، إلا أنه تحتم علي التدقيق فيها... وكم كان ذاك موجعًا لقلبي.

أخذتُ صور (أنس) و(أسيل) في الجريمة الأولى وعلقتها على الحائط بالدبابيس، التي أخرجتها من العلبة الصغيرة الزرقاء التي أستعملها في كل جريمة... لأُتبِعَها بصور (داوود) و(غدير). فوق كل صورة وضعت اسم الضحية ووقت موتها المحتمل ووقت وضعها المحتمل في مسرح الجريمة، فكما ذكر الطب الشرعي أن المجرم يقتلهم ثم يمثل بأحشائهم كما شاء. وعلى هذا المنهاج حتى انتهيتُ من لوحتي تلك وأفسدتُ حائط غرفة الضيوف الأنيق، أتمنى أن تغفري لي يا (أبرار) ما أحدثتُ بحائطك.

ابتعدتُ عن الحائط لأتمكن من رؤية التفاصيل كلها، متلاعبًا بالنردين الأسودين لا شعوريًا.

«والآن، ماذا يمكن أن تخبروني به؟»

تنهدتُ بعمق وسط زمجرة الرياح، ناظرًا لجثة (أنس) الذي استلقى بحذائه الجديد اللامع... وقد سلب القاتل منه فرصة الاستمتاع به بل بحياته التي لم تبتدئ بعد.

«مهارة اللعين في استخراج قلوبهم وحفظها مع الجثث حتى لا تفسد، يجعلنا أمام خيارين... إما أن المجرم طبيب جراح أو أن له معاونًا كذلك»

همستُ وأنا أكتبُ على ورقةٍ صغيرة لأعلقها تحت قسم المشتبه بهم.

«والآن الدافع...»

نظرتُ مطولًا لصور الضحايا مقلبًا بين النردين بسرعة، وخلايا ذهني تحترق من شدة التفكير.

«ربما كان دافعه عداوات سابقة مع أهالي الضحايا، مما يجعل لدى المجرم الرغبة في الانتقام منهم بأبشع طريقة... أو أن المجرم لديه مرضٌ نفسي سايكوباتي قد نزع الرحمة من قلبه... يجعله يريد الانتقام من المجتمع الذي لم يقدم له المعاملة ذاتها التي قدمها لهؤلاء الأطفال... وما يعزز هذه النظرية اختياره للأطفال المجتهدين»

علقتُ نظريتي تلك على القسم نفسه بالحائط، رغم بديهيتها وسهولة استذكارها إلا أن الأوضاع لا تسمح بتضييع أي تفاصيل.

«أتعجّبُ من اختيارك للأزقة في عرض عملك الفني الشرس»

تحدثتُ وكأنه أمامي، ناظرًا للحائط المعقد والتفاصيل الكثيرة

الخاصة بالجريمة... عاقدًا العزم على معرفة سبب اختياره للأزقة بالذات.

لكي لا يراه أحد وقت وضعه للجثث؟ لا سيما وأن إنزاله للجثث ووضعه لها وتعليقه للقلوب بتلك الاحترافية يتطلب وقتًا. كتبتُ الاحتمال وعلقته تحت قسم مكان الجريمة. كل هذه التفاصيل مهمة في أي تحقيق، لتلقي القبض على مجرمٍ فعليك أن تفكر مثله.

لحظة، لابد من وجود كاميرات مراقبة تطل على أحد الأزقة، بما أن كلا الزقاقين استقرا بين محال تجارية! لكن... لا أعتقد أنه بهذا الغباء ولا أعتقد أن رجال الشرطة فوتوا هذه النقطة. لا ضير من سؤال العقيد غدًا عن هذا الأمر، كما قلت... لا نريد أن نترك أي شيء للحظ.

«لِمَ لم يكتفِ بقتلهم وحسب؟ لِمَ العناء وانتزاع قلوبهم من أحشائهم، وتعليقها فوقهم في مسارح الجريمة؟»

هو يريد إيصال فكرته للجميع، يريدنا أن نشاهد عمله الفني في كل جريمة ونبهر بوحشيته الشديدة... ما الفكرة التي يريد إيصالها من تعليقه لتلك القلوب؟

ربما يريد أن يوصل للمجتمع أنه استحق الرحمة منهم حين لم يجدها في طفولته؟

وإن فكرنا بنظرية أن الدافع لجرائمه انتقامٌ من الأهالي، فربما يريد أن يزيد حسرة الآباء على أبنائهم برؤيتهم كذلك؟

اتكأتُ على الحائط عاقدًا ذراعي، ناظرًا لكل تلك التفاصيل والأسئلة التي تنتظر إجابةً مني... وعقلي قد وضع هيئة للمختل الذي أقلق مضجعي... طويلٌ محدودب الظهر... صوته عميق... له عينان ناعستان باردتان... وقلبٌ من حجر. ارتعش جسدي لمجرد التفكير به، والرياح المشتدة في الخارج لم تعد وحيدة... فقد صاحبها الرعد المدوي... وهما يعدان الجميع بليلةٍ ماطرة.

اشتباه

أسميه فصل الانتقام، بلياليه الطويلة الباردة المطيرة أحيانًا... حابسًا الناس في منازلهم تحت ألحفتهم وحول مدافئهم. تزيدُ قسوته على أولئك المفارقين للأخلاء والأحبة، معاقبًا لهم على الفراق وكأنهم اختاروه... لكن الشتاء لا يكترث لكل ذلك.

شددتُ على معطفي الفرائي الأسود الذي غطى ثوبي، ورياح الشتاء الصباحية تتلاعب بشماغي الأبيض... يبدو أن الشتاء سيظل يعذبنا بهوائه الذي لا يهدأ وغيومه الكاتمة للشمس. صافحتُ (سراج) الذي دخل معي لمبنى التحقيق، وابتسامته تكسو وجهه الأسمر الحليق. كان (رعد) و(عامر) قد سبقانا بوجودهما في المكتب، وقفا متبادلَين أطراف الحديث الذي بدا لي متعلقًا بقضيتنا.

«وصلتما على وقتكما، لنسرع بطرح استنتاجاتنا من خلال دراستنا للقضية... ثم نقسم المهام لزيارة مدارس الضحايا»

قال (رعد) بعد مصافحتنا، ولحيته الخفيفة التي غطاها الشيبُ مع شاربه الكث أعطته رونقًا مهيبًا... داعيًا الجميع للجلوس خلف مكاتبهم.

«نبدأ معك يا (أديم)»

لم أتوقع أن تبدأ الجلسة بحديثي، اعتدلتُ واقفًا وأخرجتُ الورقة من جيبي ساردًا:

«أبدأ حديثي بأهم استنتاج خرجتُ به وأعتقد أنه خطر ببالكم جميعًا... مجرمنا إما أنه طبيبٌ جراح أو له معاونًا كذلك»

أومأ جميعهم بتركيزٍ وإنصات، لأكمل ناظرًا للورقة:

«والدافع الذي تطرقنا له بالأمس، إما أن مجرمنا لديه مرضٌ نفسي سايكوباتي أو يسعى خلف انتقامٍ من أهالي الضحايا... والذي سيحدد أيهما أقوى مقابلتنا لعوائل الضحايا»

أضاف (رعد) عاقدًا ذراعيه أمام جسده البدين:

«وعلى هذا فيجب مراعاة أن خلاف أهالي الضحايا كلهم سيكون مع شخصٍ واحد معين، لذلك أستبعد هذا الاحتمال»

قال (سراج) معززًا:

«واختياره لأنثى وذكر في كل جريمة وفي العمر المحدد بـ ٧ سنوات يجعل احتمال أنه مختل أقرب من أنه يسعى للانتقام الشخصي من أهالي الضحايا»

أومأتُ برأسي مبتسمًا نصف ابتسامة، بعد أن زاد اقتناعي أن اختيار القيادة العليا لنا لم يكن عبثًا... لأكمل:

«ناهيك عن اختياره للأزقة وتعليقه لقلوب الضحايا فوقهم في كلتا الجريمتين، كل هذا يجعلنا أمام مختل اجتماعي شديد الخطورة... لكن لا يجب أن نهمل الاحتمال الآخر بالكلية»

أخذتُ نفسًا بعد إنهاء نقطتي تلك، لأترك المجال للأسئلة أو الاعتراضات قبل أن أطرح نقطتي التالية:

«يتبقى عندي ثلاثة أسئلة، لِمَ يختار الأزقة بالذات؟ ألأنها تعطيه الوقت الكافي لعرض عمله الفني الشنيع؟

لِمَ ينتزع قلوب الضحايا ويعلقها؟ ليوصل رسالةً ما؟ ماهي؟

وهل نظر رجال الأمن لكاميرات المراقبة؟»

وقفتُ منتظرًا الأجوبة من المحققين، ليعتدل (عامر) في جلسته مجيبًا بعينيه العسليتين اللامعتين:

«أعتقد أن اختياره للأزقة يعود لرغبته في إيصال رسالةٍ ما، ولو كان سبب اختياره للأزقة هو إيجاد الوقت الكافي لتجهيز مسرح الجريمة... لوجد طرقًا أكثر أمانًا له من عرضها في زقاقٍ يستعمله المارة»

تساءلتُ باهتمام، مخرجًا النردين الأسودين من جيوبي:

«هنا يكمن السؤال الأصعب، ما هي رسالته التي يريد إيصالها من اختيار الأزقة؟»

شغل النردان فكر المحققين عوضًا عن سؤالي المهم، وكان معهم الحق في ذلك... قد اعتدتُ بحلول ذلك الوقت على استغراب الناس عند ملاحظتهم لعادتي تلك.

أجاب (سراج) بعد عودة عقله لسؤالي، واضعًا يده في جيبه:

«من الممكن أن مجرمنا لديه (فوبيا الأماكن الضيقة(*))؟ فذلك يجعله يعتقد أن وضع هؤلاء الأطفال حتى بعد موتهم سيجعلهم يعانون أكثر؟»

قلتُ باهتمام، ملاعبًا لحيتي المهذبة... بينما انشغلت اليد الأخرى بملاعبة النردين:

«نقطة جيدة! وتعليقه للقلوب قد يكون رمزًا لانتقامه من المجتمع الذي سلبه حنان الطفولة مثلًا؟»

---

*) رهاب الاحتجاز أو رهاب الأماكن المغلقة أو الضيقة (بالإنجليزية: Claustrophobia) هو الخوف الناتج عن وجود الشخص في مكان ضيق أو مغلق. وهو يعتبر أحد الأمراض الناجمة عن القلق وعادة يتسبب في حدوث نوبات ذعر.

اعترض (رعد) واقفًا من مكانه متجهًا لي:

«دعونا لا ننجرف كثيرًا خلف الاحتمالات والنظريات هذه كلها ونعطِها اهتمامًا فوق ما تستحق، ولنركز على الحقائق التي لا ريب فيها... أما عن كاميرات المراقبة فقد راجعها رجال الشرطة وللأسف كان جميعها معطلًا منذ أشهر ووضعها أصحاب المحال فقط للهروب من المخالفات... وتم تغريمهم»

«ماذا لو كان المجرم هو من عطلها قبل جرائمه بمدة؟!»

استطردتُ وخيالي يسبح بعيدًا، محاولًا الوصول لعقل الجاني بأي طريقة... لم يكن كغيره أبدًا وبدا غايةً في العبقرية فهو يعرف ما يفعل جيدًا.

«كما قلت سابقًا، كل هذه مجرد احتمالات لا نستطيع بناء أي حقيقةٍ عليها... هل من نقاطٍ لم يذكرها صديقنا؟»

ربت (رعد) على كتفي مشيرًا لمكتبي، منهيًا الحديث حول تلك النقطة... لكن عقلي أبى أن يقف عند ذاك الحد. كدتُ أجادله إلا أني أعرف جيدًا معنى أن يوقفك رئيسك في العمل، حتى لو كان الحق معك فالأفضل أن تلزم الصمت... عدتُ لمكتبي وارتميتُ على الكرسي.

هز البقية رأسهم بالنفي وأصابني ذلك الشعور السيئ، شعور الطالب المجتهد الذي يسرق فرصة الإجابة من زملائه في الصف... لطالما أشعرني هذا الأمر بالغباء.

«حسنًا، سيتجه (سراج) و(أديم) لمدرسة الطفل (أنس) والطفل (داوود) وسأتجه مع (عامر) لمدارس الفتاتين (أسيل) و(غدير)»

فضَّ (رعد) الاجتماع واتجه كل منا نحو رفيق مهمته، ليمنحني الرائد (سراج) ابتسامته المعتادة ويقدمني للخروج من المبنى. قال وهو يمشي للخارج بثوبه الأسود وشماغه الأبيض:

«لنذهب بسيارتي ما دمت ضيفًا لدينا»

فكرتُ بصوتٍ عالٍ، مبادِلًا الرجل ابتسامته اللطيفة... مغادرًا المبنى:

«من الغريب جدًّا أن تشعر أنك ضيفٌ في مكانٍ قضيت فيه كل شبابك»

مازحني وهو يعدل عقاله:

«لم أعلم أنك كنت تعيش هنا، ستأخذني بسيارتك إذًا!»

«(أديم)، لحظة من فضلك»

ناداني العقيد من الداخل، مما جعلني ألتفت وأعود للداخل... شاعرًا بقليل توتر. لا أعلم لمَ أتوتر حين يطلبني أحدهم للحظة، ألأن هذا يحدث دائمًا حين ارتكابي لخطأٍ ما؟

قال (رعد) وهو يجمع حاجياته المتناثرة على مكتبه:

«هل تستطيع ترتيب الاحتمالات والحقائق التي تبادلناها اليوم على لوحة؟ نريد ترتيب الاستنتاجات التي نحصل عليها كل يوم حتى لا نتيه»

«بالتأكيد، سيادة العقيد»

كنتُ أعلم في قرارة نفسي أنه يدرك قوة الاحتمالات وما يمكن أن توصل إليه، غادرتُ المبنى لألتحق بـ(سراج) سريعًا... كان قد ركب سيارته وقام بتشغيل المحرك. انطلقنا نحو مدرسة (أنس) و(داوود)، في محاولةٍ لملاحظة ما لم يلاحظه رجال الشرطة... تحت غيوم (الطائف) التي ستتحول عما قليل - كما أعتقد - لضبابٍ كثيفٍ تنعدم معه الرؤية أو تنزل علينا زخات المطر.

«تعتقد إذًا أنه عطّلَ كاميرات المراقبة قبل جرائمه؟»

سألني (سراج) ويداه على المقود، ملتحمًا بالسيارة التي كانت تقود ببطءٍ أمامنا.

«لا أستبعد هذا الاحتمال ولا أؤيده بنسبة كبيرة أيضًا، أن تكون كل تلك الكاميرات معطلة من شهور هو أمرٌ يثير الريبة»

أطلقتُ تنهيدةً عميقةً، مسندًا رأسي على المقعد ليميل عقالي.

لم يعقب على حديثي، استمر بالقيادة في صمت تام بينما سبحت بنظري في الشارع الذي هدأ ازدحامه الصباحي قليلًا... بعد لجوء الطلاب لمدارسهم وجامعاتهم والموظفين لدواماتهم.

طريق المطار، أتذكر جيدًا ازدحامه وقت الذروة... أتذكر التسابق والسرعة الجنونية بين الساعة السابعة والثامنة خوفًا من وقوع الحرمان على الطالب الجامعي.

عجبًا، كيف للإنسان أن يترك المكان الذي أفنى شبابه فيه... هروبًا من ذكرياتٍ أليمة تذكره بها طرقات المكان وأحياؤه وحتى هواؤه! لم يكن هذا حالي أنا فقط مع مدينتي الصغيرة، بل كان حال أولئك المنفصلين جميعهم... بحثًا عن مكان آخر لا يرون فيه انعكاس الأحباب الراحلين بالحيطان والشوارع وكل شيء.

«ها نحنُ ذا، اللهم دليلًا قاطعًا على هذا السفاح»

قال (سراج)، موقفًا السيارة أمام المدرسة الابتدائية... ليرفع شماغه الأبيض فوق عقاله.

«آمين»

توجهنا نحو المدرسة بخطواتٍ ثابتة والهواء يتلاعب بأشمغتنا وثيابنا، راجين الله أن يسقط أمامنا السفاح الذي هز الطائف وأقلق مضاجع الشعب. كانت الساحة خاليةً من الطلاب الذين دخلوا فصولهم بعد الطابور الصباحي، عرفنا بأنفسنا لمشرف الدور الذي وجهنا لمكتب المدير (صالح). رحب بنا داخل مكتبه وابتدأنا المهمة به، سائلين عن أحوال (أنس) و(داوود).

«كما أخبرت رجال الشرطة من قبل، لم ألحظ أي تصرف غريبٍ منهما قبل وفاتهما... وفعلًا كان (أنس) و(داوود) من أذكى الطلاب بفصولهما وأكثرهم اجتهادًا»

أنهى المدير حديثه ناظرًا لنا بأسى، وكأنه يلوم نفسه على ما حدث لهما... مسندًا ظهره على الكرسي.

ألقيتُ النظر على (سراج) الذي أومأ لي بحدة، يبدو أن ملفنا حول هذا المجرم بدأ يكتمل... بل بدأ يتكون إن صح التعبير. قال ضاربًا بكفه على طرف كرسيه:

«حسنًا، نود مقابلة حارس المدرسة والمعلمين ومشرف الدور... كلًا على حدة»

«بالتأكيد، سأترك لكما مكتبي وأناديهم واحدًا تلو الآخر»

بدأنا محاورة المعلمين الذين لم يعطونا أكثر مما أعطوا رجال الأمن قبلنا، كما توقعنا بالضبط... لكن هذا الإجراء هو الروتيني في كل قضية فكل التفاصيل مهمة وقد يغفل أحدهم عن تفصيلٍ مهم. استمر الحال إلى أن وصلنا لذاك المعلم النحيل... (زاهر).

دخل المكتب ووجهه يفضح توتره وقلقه، ويداه لا تكفان عن الارتجاف. كان نحيلًا للغاية وكأنه خارجٌ من مجاعة، بلحية شقراء خفيفة وشارب على وجهه الأبيض. أشرتُ بنظري لـ (سراج) وبدأنا الشدة معه في الأسئلة، وجهتُ سؤالي له:

«كيف وجدت الطالبين (أنس) و(داوود)؟»

«رحمهما الله، لقد فاقا جميع الطلاب في صفهما اجتهادًا وذكاءً وأخلاقًا»

نجح في إخفاء ارتباكه عند سؤالي، لبياغته (سراج):

«هل لاحظت أي تصرفٍ مريبٍ منهما؟»

«أبدًا، لا أنا ولا بقية زملائي»

نجح مرة أخرى بلسانه، على عكس وجهه ويديه اللتين فضحتاه بتوترهما.

استمر طرحنا للأسئلة واستمر هو بإجاباته الراسية، وكأنه حفظها قبل دخوله علينا. صرفناهُ وكان آخر المعلمين، ليتبقى لنا حارس المدرسة فقط. دخل علينا المدير (صالح) بعد (زاهر) قائلًا:

«أعتذر منكما فحارس المدرسة السابق (حمدي) مصابٌ بوعكةٍ صحية ألزمته الفراش، قبل حدوث الجرائم بفترة بسيطة... تستطيعان زيارته في منزله بهذا العنوان»

ناولنا ورقة تحوي عنوان الحارس، شكرناه وطلبنا منه مقابلة الحارس الذي أدى مهمة (حمدي) بالنيابة وقت مرضه... والذي لم يعطِنا أكثر من المعلمين السابقين.

غادرنا المدرسة بعد أن ودعنا (صالح)، لأسأل (سراج) ونحن نركب السيارة... نافخًا في يدي لتشعرا بالدفء:

«هل يستحق المدرس (زاهر) أن يكون المشتبه به الرئيس في القضية للحظة الراهنة؟»

قال وهو يربط حزامه ويسرع بنا نحو العنوان:

«هذا يعتمد على ما سنسمعه من الحارس (حمدي)، لكنه مثيرٌ للريبة بلا شك لا أعتقد أن ارتجاف يديه كان جراء البرد أبدًا»

سلكنا الطريق في صمتٍ وقد أصابنا بعض اليأس، لا سيما وأن كل ما نملك حتى الآن من مشتبهٍ بهم هو معلم كان متوترًا فقط وقت المحاورة... وهذا ليس بدليلٍ كافٍ أصلًا لنضعه تحت الاشتباه. أرى الأطفال في الطريق الطويل اللامنتهي، يصرخون وقلوبهم فارقت أجسادهم... منتظرين منا الأخذ بثأرهم وتحقيق العدالة بعد الله سبحانه وتعالى. يا الله، كم هو مرهقٌ عملنا الذي نفكر فيه حتى بعد انتهاء ساعات العمل... بل ليس هناك ما يسمى بساعات عملٍ وراحة وإجازة في عملنا هذا. ما دمتَ تتنفس وقلبك يضخ الدم في جسدك، فأنت مطالبٌ بالبحث عن الحقيقة ورد الحقوق لأهلها.

أخذَنا العنوان لمنطقة خالية من الخدمات، لحي ناءٍ لم يحوِ سوى عدة منازل عتيقة متشققة... تكاد حيطانها تسقط فوق رؤوس قاطنيها. بعض البيوت لم يتم تشطيبها، قبعت هناك وحيدة بشكل عشوائي مؤذٍ للعين. حتى الطريق لها كان ترابيًا لم يوضع عليه الإسفلت بعد، وآثار عجلات السيارات محفورة في التراب الصلب.

«هاهو ذاك»

قال (سراج) مشيرًا لمنزلٍ قديم تشققت جدرانه، توقفت أمامه

سيارة لم تخالف البيت في قدمها... والغبار الذي غطاها أثبت أن السيارة لم تغسل منذ سنوات. تنبهتُ بعدها لباب المنزل الحديدي الصدئ، مفتوحًا على مصراعيه والهواء يتلاعب به.

ركنا السيارة جانبًا ونزلنا سريعًا، متناولين أسلحتنا لنحث الخطا تجاه منزله الذي تأرجح بابه للأمام والخلف... مُنبِّهًا الحي بأكمله بصريره المزعج. بكل حذرٍ وثبات، اتكأ على يمين الباب وأنا على شماله... لنباغت المنزل بالوقت ذاته مشهرين مسدساتنا. تخطينا الفناء الأمامي الذي تناثرت في أنحائه الألعاب القديمة الصدئة، من دراجة وأرجوحة وزلاقة... لتتناغم مع الحيطان المهترئة بتشققاتها.

ثوانٍ معدودة، وخرج شخصٌ من المنزل لنشهر مسدساتنا بوجهه... ليتفاجأ بوجودنا ويلتصق بباب المنزل من الرعب. سقطت من يديه الأكياس التي كان يحملها، وعيناه البنيتان مفتوحتان بفزع. كان يرتدي لباس الممرضين الذي أعرفه جيدًا، بلونه السماوي وهيئته... فقد كانت تلك الوظيفة التي تشغلها طليقتي (أسرار).

«من أنت؟ ما الذي تفعله في منزل السيد (حمدي)؟!»

صرختُ ومسدسي موجهٌ نحوه، واقفًا بأسفل الدرج وبجواري (سراج)... بينما كان هو بأعلاه على باب المنزل.

«مـ.. مـ.. مهلًا أ.. أ.. أنا لم أفعل شيئًا والله!»

صرخ مرتعدًا بعينيه المغمضتين، شاعرًا برصاصةٍ ستخترق جبينه بعد لحظات.

«أجب على السؤال!»

زاده (سراج) رعبًا وهو يقطب حاجبيه، منتظرين منه تفسيرًا منطقيًّا لوجوده بمنزل الحارس.

«أنا الممرض (أسامة)، و.. وأنا الذي كنت أهتم بالسيد (حمدي) وبإمكانكم التحقق من بطاقتي»

صاحَ ممسكًا بطاقته المعلقة على رقبته ورفعها لنا، وعيناه لا تزالان مغلقتين بشدة.

نظرتُ لـ(سراج) وتنهدت بعمق... خافضًا سلاحي لأهرع نحو الممرض. فتح عينيه ببطء لتسقط منهما الدموع، ربتُّ على كتفه متحقِّقًا من بطاقته قائلًا:

«معذرةً (أسامة)، نحن نحقق في قضية شائكة ويتوجب علينا

أخذ الحذر من كل تصرف... أنا الرائد (أديم) وهذا زميلي الرائد (سراج) من المباحث الجنائية... أتينا لنسأل السيد (حمدي) بعض الأسئلة... هل هو مستيقظ؟»

نظرَ لنا (أسامة) باستغراب مقطبًا حاجبيه، بينما وقفَ كلانا على أعصابه... منتظرين منه إجابة.

«أليس لديكم علم؟ العم (حمدي) مفقودٌ منذ أكثر من أربعٍ وعشرين ساعة! ومن المفترض أن رجال الشرطة سيبدؤون عمليات البحث عنه كما قالوا لي»

سحقًا، تزداد هذه القضية تعقيدًا كلما تعمقنا بها! تمامًا كالسراب، كلما اقتربت منه ابتعد عنك... حتى تنفد طاقتك لتسقطَ مغشيًّا عليك من العطش والتعب.

***

«هنا كان فصل الخطاب بيني وبين (أديم)، هو يعتقد أن السفاح اختطف (حمدي) لامتلاكه معلومات خطيرة تدلنا عليه... بينما أعتقد أنا أن السفاح هو (حمدي) بذاته وقد لاذ بالفرار والاختباء»

قال (سراج) وهو يعتدل على كرسيه، في غرفة التحقيق التي اجتمع فيها بقية الفريق... بعد رجوعهم من مهامهم.

العقيد (رعد) قد تمدد على كرسيه ليظهر جسده البدين، واضعًا يديه فوق رأسه الأصلع وقد خلع شماغه. بينما جلس (عامر) فوق مكتبه مؤرجحًا قدميه للأمام والخلف، متلاعبًا بسكسوكته ودماغه منشغلٌ بالقضية كبقيتنا.. بعد عودتهما من مدرستي الفتاتين (أسيل) و(غدير) دون جدوى.

كنتُ واقفًا أمامهم بعد أن استعرضت ما حصل معنا اليوم من تطورات، ليقول (عامر) وعيناه العسليتان تخترقان عيني باهتمام:

«أتفق مع (سراج) للأمانة، لا سيما أن (حمدي) هو الوحيد الذي ليس لديه حجة غياب بين كل من نظرنا في أمرهم»

تحدثتُ باعتراضٍ تام، متلاعبًا بالنردين الأسودين:

«لعل لديه حجة غياب! كل ما قاله الممرض (أسامة) أنه لم يكن برفقته في الأوقات المتأخرة من الليل، هذا لا يعني أنه لم يكن في منزله غاطًّا في نوم عميق»

سأل (رعد) ناظرًا للجدار ببرود، عاقدًا يديه أمامه:

«ألا يوجد أي فردٍ من أفراد عائلة (حمدي) أو من معارفه نستطيع سؤاله؟»

تنهدتُ بعمقٍ قائلًا:

«لم يتزوج (حمدي) في حياته ولم يكن له إخوة، ومعظم أقاربه - الذين لم يكونوا على تواصلٍ معه أصلًا - وافتهم المنية سوى قلائل لا يسكنون (الطائف) ولم يصلوه منذ زمنٍ بعيدٍ جدًّا»

تدخل (سراج) محتجًّا:

«ألا ترى يا (أديم)؟ أليس غريبًا ومثيرًا للريبة؟ أن يوجد كهلٌ لم يتزوج في حياته وقد قطعه أقاربه؟!»

أجبتُ سؤاله بسؤال، وقد رفض عقلي هذه النظرية التي وضعوها عن الحارس:

«ما دافعه إذًا؟ وكيف لعجوزٍ هرم يعاونه ممرض، أن يقوم بكل هذا الجهد في ارتكاب الجرائم وعرضها؟»

وقفَ (رعد) حاملًا شماغه وعقاله بيده قائلًا:

«ألم نضع احتمالية أن يكون هذا المجرم مختلًّا اجتماعيًّا؟ حتى

الآن، أرى أن كل الحقائق تشير ضد (حمدي)... فهو يستحق على الأقل أن يكون المشتبه به الرئيسي»

كعادتي عند عدم اقتناعي، لم أكن لأستسلم بهذه السهولة... أكملت:

«ماذا عن المعلم (زاهر)؟ لو رأيتم ارتباكه وقت الأسئلة لتغيرت وجهات نظركم»

«أعتقد أن ارتباك أحدهم بسبب استدعاء رجال المباحث له مبرر، قضي الأمر وانتهت جلستنا اليوم... سيكون (حمدي) هو المشتبه به الرئيسي حتى يجد جديد»

لم أكن لأعاند أكثر، فالعقيد (رعد) هو رئيس الفريق... وهو من يعطي التوجيهات التي علينا اتباعها دون عصيان... حتى لو لم نقتنع.

غادر الجميع الغرفة بينما اتكأت على السبورة مغمضًا عيني، ضاغطًا على النردين بقبضتي بشدة... محاولًا إبعاد مشاعري وتحكيم عقلي... لِمَ؟ لِمَ يا عقلي تعاند وترفض تجريم (حمدي)؟!

***

يختطفهم، يحقنهم بكميات كبيرة من (المورفين)، ينتشل قلوبهم من أجسادهم أو يستعين بشخص يستطيع القيام بذلك، يحملهم ويضعهم في أزقة ضيقة ثم يعلق قلوبهم فوقهم... كل هذا في وقتٍ قياسي وباحترافية عالية. أيعقل أن (حمدي) العجوز قادرٌ على كل هذا؟

تساءلتُ واقفًا على الزقاق الذي حدثت به الجريمة الأولى، زقاق (أنس) و(أسيل). اقشعر جسدي حين تراءت جثثهم الهامدة على الأرض، وقلوبهم تتطاير فوقهم كبندول ساعة! أشفق على حال العجوز الذي كان ذاهبًا لأداء صلاة الفجر في المسجد، ليكون أول من يجد جثثهم... أراهن أنه لا يزال يراهم بأحلامه ويزور العيادات النفسية ليتعالج بعد ما رآه.

«ما الذي يمكنك أن تخبرني به؟»

همستُ ملامسًا جدار الزقاق، مغمضًا عيني في محاولةٍ يائسة لتصور دخول الجاني له... ووضعه للجثث. ربما كانت لديه سيارة دفع رباعي، يوقفها بالعكس لتكون مؤخرتها نحو الزقاق... ثم يخرج الجثث من الصندوق ويعلق القلوب فوقها بالـ..

قاطع خيالي صوتٌ خلفي، التفتُّ سريعًا لأرى ذاك المقنع بالسواد بطوله الموازي لطولي! التقت عيني بعينيه على الرغم من

اختبائهما خلف نظارة شمسية سوداء، إلا أنني شعرتُ أنها التقت!

وجههُ قد تغطى بكمامة سوداء، ورأسه بقلنسوة سوداء قاتمة... في الواقع كان متشحًا بالسواد بالكامل حيث لم تظهر أي بقعة من جسده.

لم يلبث حتى انطلق هاربًا، لألحقه مباشرةً ونبضاتُ قلبي تكاد تنفجر من شدة سرعتها. خرجتُ من الزقاق لأراه ركب دراجته النارية ولاذ بالفرار، حاولتُ اللحاق به على الأقدام لكن سرعان ما انعطف... وكان من المستحيل أن أستطيع مجاراته ركضًا. وقفتُ مكاني ملتقطًا أنفاسي، راكعًا ونظري موجه للأرض... لاعنًا نفسي لعدم أخذي لمسدسي.

من هذا المقنع؟! من المؤكد أنه السفاح الذي نلاحقه! وجوده في الزقاق بنفس الوقت الذي أتواجد فيه، وبتلك الساعة المتأخرة التي تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل!

ما الذي أتى به أصلًا؟! هل أراد لفتَ انتباهي؟ هذا هو التفسير الوحيد المنطقي، خصوصًا أنه كان يستطيع رؤيتي من الخارج على دراجته دون الحاجة للنزول. نظرته الواثقة مع وقفته لم تكن نظرة شخصٍ متفاجئٍ أبدًا، بل كانت نظرة شخصٍ علم بوجودي هناك... وأراد أن يثير انتباهي ويعلمني بوجوده ومراقبته لي!

التقطتُ أنفاسي وفركتُ عيني، ثم اتجهتُ لسيارتي الصغيرة وآلاف التساؤلات تغزو عقلي... أهمها... من هذا الذي يريد إثارة انتباهي؟ ولِمَ؟

لم أعُد أستطيع التفكير بشكل جيد وعلمتُ أن موعد قهوتي قد حان، فدونها لن أستطيع الاستمرار على الوجه الصحيح... وسيكون كل ما أفعله هو التخبط وعدم التركيز. ما أسخف البشر وأتعسهم، يعلقون أدمغتهم وأجسادهم بالكافيين وغيره من المنبهات... ليخسروا عليه صحتهم ويهدروا عليه أموالهم ووقتهم.

قررتُ الذهاب لذاك المول الذي أصبح وجهة (الطائف) آنذاك، والذي لم ألحقه أيام سكني فيها فقد غادرتُ قبل افتتاحه. كنتُ في أمس الحاجة لشيءٍ يصفي الذهن ويعيد لي مهارات التفكير، حركني دماغي نحو حاجته الماسة للقهوة... لأجد نفسي بطريق (وادي وج) المؤدي للمول. نظرتُ للمرآة الوسطى لأرى إن كان ذاك اللعين يلاحقني، لا ريب أنه يراقب تحركاتي كلها منذ قدومي هنا أو حتى قبل ذلك بكثير! هل كنت مخطئًا بشأن (حمدي)؟ لا لا، كيف لذاك العجوز أن يكون بهذه اللياقة والسرعة؟! وبظهره المحدودب الذي رأيته في الصور وقصره، يستحيل أن يكون هو المقنع!

لعله كان المعلم (زاهر)، ويريد التخلص مني بعد أن شككنا بأمره! آه، هذا أيضًا مستحيل لنحالته وقصره أيضًا مقارنةً بالمقنع... كان ذاك المقنع موازيًا لطولي أو مقاربًا له!

توقفتُ بسيارتي أمام أحد مقاهي المول، ارتديتُ معطفي وأنا أتلفَّتُ خلفي... لأرتاد المقهى وأطلب قهوتي السوداء المريرة – التي أمقتُ طعمها لكنني أدمنها رغم ذلك - ثم صعدتُ للدور الثاني.

كان خاليًا تمامًا مما أراحني كثيرًا، سحبتُ الكرسي وجلستُ لأراقب السيارات القليلة المتحركة في الطرق تحتي، وبقايا من الشباب المتسكعين الماشين حول المول.

«هل لي أن أخدمك بشيء آخر، سيدي؟»

قال النادل واضعًا كوب القهوة على طاولتي، مبتسمًا ابتسامة العمل المصطنعة التي أجبره عليها سيده في العمل.

شكرتُهُ واحتسيتُ قهوتي في صمتٍ تام، لتكون بمثابة الإنعاش لقلبي وعقلي... بعد أن ذاق لساني مرارتها ومررها لجوفي.

سرتْ رعشةٌ خفيفةٌ بجسدي، نظرتُ خلفي شاعرًا أن ثمة من يراقبني ويترصد لي... لأعلم حينها أن ذاك الشعور سيداهمني من الآن وصاعدًا. تغيرتْ موازين التحقيق الآن، وكل الحقائق بدت لي من منظورٍ مختلف... منظورٍ شخصي لم أتوقع أن أرى به القضية أبدًا!

اضطراب

«هذه كل كاميرات المراقبة المغطية للطرق المحتملة التي قد يسلكها في تلك الساعة من الليل، سوى هذا الطريق الفرعي بين المنازل والذي لا يحوي أي كاميرا»

قال الخبير التقني مشيرًا بين الكاميرات المغطية للطرق الثلاث، ليرينا بعدها الطريق الذي - لسوء الحظ - لم تغطه أي كاميرا.

«قد سلك هذا الطريق إذًا!»

قلتُ بثقة، محركًا إصبعي على الطريق الظاهر في الخريطة المعروضة على الشاشة:

«شكرًا (فيصل)، تستطيع الانصراف الآن»

صرفَ العقيد (رعد) الخبيرَ التقني، بينما توزع بقية الفريق بأنحاء غرفة السيرفرات الجامعة لكاميرات المدينة... سابحين بأفكارهم بحثًا عن التفسير المنطقي لما حدث معي.

قال (رعد) ويداه في جيب ثوبه الأسود، بينما ركز النظر في كاميرات المراقبة:

«عذرًا (أديم)، سيتوجب علينا الاستمرار بالأدلة الموجودة لدينا والبحث في أمر (حمدي)»

قال (سراج) معترضًا:

«لكن إن كان ما رآه حقيقيًا، فمعادلة التحقيق ستتغير بالكامل... أعتقد أن علينا على الأقل التفكير في شخصٍ يعرفه...»

قاطعه (رعد) بفظاظة:

«أتعرف عدد الأطفال المهددين بالقتل ونحن نخوض هذه المحادثة؟! أتدرك حجم الضغط الشديد الذي يضعه الجميع علينا؟! لن أغير سير التحقيق بناءً على مقنعٍ أبله لربما كان يمارس الألاعيب والمقالب! ستذهب أنت و(عامر) لمقابلة عوائل الضحايا... احرصا على سؤالهم عن (حمدي). وأنا سأتواصل مع أقارب (حمدي) لجمع أي معلومات عن طفولته، بينما سيتوجه (أديم) لمقابلة الممرض (أسامة) لمعرفة كل شيء يعرفه عن الحارس بالتفصيل»

فضَّ (رعد) الاجتماع هذه المرة من غرفة الكاميرات وأعطى كلًا مهمته، وأنا أعلم تمام العلم أن البحث في أمر (حمدي) مضيعةٌ للوقت... لكن رئيس الفرق أصدر أوامره.

سأل (عامر) معدلًا شماغه:

«هل وضعت الصحف والقنوات خبر فقده وصورته؟»

أومأ (رعد) واتجهوا للخارج، لألحقهم وعقلي يرفض تصديق أن من رأيته كان مجرد مهرج... يتملكني شعورٌ قوي أن من رأيته بالأمس هو السفاح الذي نبحث عنه... خصوصًا أنه سلك الطريق الذي ليس به أي كاميرات! ليس بالضرورة أن يكون حدسي صحيحًا، وهذا الذي يجعلنا ننصاع دومًا لأوامر قائد الفريق ولا نستبعد الحقائق بناءً على الحدس والشعور. أخرجتُ هاتفي واتصلتُ بالمرض (أسامة) ليخبرني أن بإمكاني زيارته في المستشفى الآن، لم أضيع ثانيةً وتوجهتُ نحوه.

بين طرقات الطائف المقبول ازدحامها، وتحت الغيوم المثقلة بالمطر الذي سيهطل عما قريب... وصلتُ للمشفى وأوقفتُ سيارتي وغصتُ متأملًا الأطباء والمرضين المتأخرين عن دواماتهم. داهمني اكتئاب المستشفيات بمجرد رؤيتهم، كم أكرهها وأكره من يعمل بها أيضًا! تكونُ في أسوأ حالاتك لتقف عند الاستقبال الذي يجلس خلف مكتبه شاب أو فتاة، قد بلغ بهم الضجر أقصاه وهم يمضغون العلك... مشغولين بأجهزتهم عاقدين أقدامهم. وبمجرد

نداائك لهم وإعادتهم للواقع، يرمقونك بنظرة الازدراء ليخدموك بأسوأ شكلٍ ممكن... وكأنهم يتفضلون عليك بخدمتهم. تستمر دوامة الضيق وقت انتظارك لذاك الطبيب الذي يعتقد أنه سامٍ من الطبقة العليا من البشر، فقط لتخرجه من كلية الطب التي أجبره عليها والده ليفخر به أمام الملأ... هل بالغت وعممت؟ ربما. لعلي بالغت في كرهها لأن زوجتي السابقة كانت تشغل مهنة التمريض فيها؟

زفرتُ بعُمق وتوجهتُ نحو مبنى المستشفى، تاركًا هواجسي ورائي... عالمًا تمامًا أنها ستتبعني. خطوتُ للداخل لتغزو رائحة المعقمات أنفاسي، بمجرد استنشاقي لها شعرت بالمرض تلقائيًا. التقيتُ (أسامة) لحسن الحظ قبل أن ينجرف عقلي لوحل الذكريات، ذكرياتي معها.

«تفضل سيادة الرائد، لنتحدث بالداخل»

أدخلني أحد المكاتب الفارغة وأغلق الباب خلفه، لأبدأ حديثي معه سريعًا لأتخارج من قوقعة المشافي:

«لن آخذ من وقتك كثيرًا، أريد أن تخبرني بدايةً عن طريقة التقائك بـ(حمدي)»

جلسَ (أسامة) على الكرسي المقابل وهو يقول:

«عند اشتداد مرض العم (حمدي) تواصل أحد أقربائه مع مستشفانا، وطلب أن يرافقه أحد الممرضين حتى يستطيع العودة لممارسة حياته بشكل طبيعي... و..»

«هل بإمكانك تزويدي باسم القريب هذا ومعلومات التواصل معه؟»

قاطعتُ حديثه متسائلًا.

«بالتأكيد، لحظات من فضلك»

أخرجَ هاتفه واتصل بأحد المسؤولين ثم أكمل:

«لحظاتٌ وسيرسلها لي المسؤول عن ملفات المرضى، المهم أن المستشفى كلفني بهذه المهمة... وبدأتُ عملية رعايته... وقد كان في البداية رافضًا مساعدة أحدهم له بشدة... فقد اعتاد طيلة حياته - كما حكى لي بعد مدة - أن يقوم بكل مهامه بنفسه. حتى أنه طردني بالبداية وقد كان غاضبًا للغاية!»

«وكيف اقتنع بتمريضك له؟»

«لم تكن هذه الحالة الأولى من هذا النوع، فقد اعتدنا على مثل

هذه الحالات. كل ما فعلته هو تمريضه ببساطة رغم توبيخه المستمر لي، حتى تقبل وجودي وأصبح يستأنس به. وكان كل شيءٍ طبيعيًّا حتى اختفائه الغريب المفاجئ»

يبدو أن نظرتي تجاه الممرضين بدأت تتغير، أسماهم الناس «ملائكة الرحمة» وقد كنتُ أسخر من تسميتهم... لكنني أتحدث الآن مع أحد الملائكة القلائل على ما يبدو. وحتى لا أظلمهم، فقد كانت (أسرار) إحدى الملائكة أيضًا.

سألتُ (أسامة) باهتمام:

«هل كان يستطيع الوقوف والمشي بمفرده؟»

«هو لم يكن طريح الفراش بالمعنى الحرفي، نعم يستطيع القيام والمشي والجلوس... لكنه يتعثر كثيرًا وتتأذى عظامه... وكنتُ في زياراتي له أحيانًا أجده ساقطًا على الأرض لمحاولته المشي كثيرًا»

«إذًا هو لا يستطيع المشي لوقت طويل، ماذا عن حمل الأشياء الثقيلة والقيادة؟»

«مستحيل... لم يكن يقوى على فتح الباب أحيانًا»

كيف لنا أن نضعه في قائمة المشتبه بهم وهو لا يقوى حتى على فتح الباب؟!

سألتُهُ أخيرًا:

«هل حدثك عن طفولته؟ هواياته؟ أماكن عمله السابقة؟»

عقد الممرض رجليه قائلًا:

«هذا هو الأمر الغريب، لطالما كان كبار السن هم أكثر المرضى حديثًا... إلا العم (حمدي) فقد كان قليل الكلام. ولم أعلم عن حياته شيئًا سوى أنه حارس المدرسة وكل حياته اعتمد فيها على نفسه، وقد كان يمقت النساء لسببٍ ما»

أطلقتُ ضحكةً عالية وتابعني (أسامة)، فقد كان دخول تلك الجملة عرضيًّا ومستغربًا... سألته باهتمام:

«حقًّا؟ ما الذي كان يقوله بالضبط؟»

أجابني وهو لا يزال يضحك:

«ينصحني تارةً بعدم الزواج، وأحيانًا يشتم المذيعة التي على الهواء في تلفازه... ويقلل من شأنهن باستخدامه لعباراتٍ مثل أن مكانهن المطبخ وأنهن كلما دخلن في أمر أفسدنه»

عم الصمتُ الغرفة بعد عبارته تلك، صدور مثل هذا الكره المتكرر تجاه النساء يضعه محل استفهام... ما الذي واجهه في طفولته يا ترى؟

«شكرًا لك (أسامة)، هذا كل ما لدي الآن... هلا أرسلت لي تفاصيل قريب (حمدي) من فضلك؟»

«لا شكر على واجب، ستصلك الآن»

غادرتُ المشفى بعد وصول معلومات قريب (حمدي) - الذي طلب له خدمة التمريض - لهاتفي...

أحمد...

صلة القرابة: ابن خال...

رقم الهاتف...

العنوان...

أغلقتُ هاتفي وركبتُ سيارتي والتساؤلات تملأ عقلي، هل لهذا الحارس صلة وثيقة لكن عقلي يأبى قبولها؟ مستحيل، بشهادة من الممرض (أسامة) فهو لم يكن قادرًا حتى على فتح الباب... فكيف له أن يخطف ويقتل ويعرض جرائمه دون أن ينتبه له أحد على الأقل؟!

ماذا عن المقنع، هل كانت رؤيتي له مجرد وهم؟ أعرف ألاعيب عقلي اللعين جيدًا، لربما كان يمارس علي مقلبًا من نوعٍ سخيف جدًا هذه المرة؟

في عودتي من المستشفى على الطريق الدائري، تراءى لي المقنع في الأفق وسط الغيوم الكثيفة... يحدق بي بنظارته الشمسية المرعبة وطوله الموازي... متحديًا إياي أن أجده قبل أن يرتكب جريمةً أخرى.

***

«هيا هيا، أخبروني عنكم أكثر وأكثر»

همستُ وأنا أنظرُ لصور الضحايا المعلقة على الجدار، آملًا أن يُبعث أحدهم من الموت ويخبرنا بقاتله.

(أنس)... (أسيل)...

(داوود)... (غدير)...

مشيتُ مقتربًا منهم ومبتعدًا، للأمام والوراء... والنردان الأسودان يتحركان بفعل التفكير الذي سيطر على أطرافي كلها. تلك الغرفة بمنزل أختي لم تعُد آمنة لأحدٍ سواي، ببشاعة الصور المعلقة... بل لم تكن آمنةً حتى لي أنا.

لم أعُد أستطيع النوم سوى سويعاتٍ قليلة قبيل الفجر، لأصحو للصلاة ثم يتطاير النوم من عيني... بعد أن حرمني السفاح لذة النوم طوال الليل.

فُتِحَ باب الغرفة فجأةً مما أفزعني وجعلني أتجمد مكاني، لتقف (نسمة) على عتبته ببيجاما نومها الحمراء... وشعرُها الأسود قد

عاثت به الوسادة فسادًا... ليظهر بشكلٍ فوضوي مرعب. حملت يدُها اليمنى دميةً صغيرةً، ويدها الأخرى مشغولة بفرك عينيها اللتين استيقظتا للتو...بدت كالطفلات اللاتي يظهرن بمنتصف الليل في أفلام الرعب.

أسرعتُ نحوها لأمنعها من رؤية الصور المعلقة على الحائط، حملتُها واتجهنا لغرفة المعيشة سريعًا... مغلقًا خلفي الغرفة المحرمة.

«ما هذه الأوراق المعلقة على الجدار يا خالي؟»

سألتني (نسمة)، بعينيها المتعبتين النصف مفتوحتين.

أجبتُها وأنا أرفع الشعيرات المتساقطة على وجهها، لأضعها على الأريكة:

«هذه تخص العمل يا قلب خالك، اخلدي للنوم الآن»

وضعتُ وسادةً خلفها لتستلقي عليها، لأفتح لها اليوتيوب على التلفاز... راجيًا الله أنها لم ترَ أيًا من صور الضحايا.

انشغلتْ بمشاهدة المقطع السخيف من إحدى عوائل اليوتيوب، الذين لا يبذلون أدنى جهدٍ في المحتوى... كل ما يقومون به هو تصوير حماقات ومشاغبات أطفالهم ومقالبهم وتحدياتهم. انشغلتُ

معها للأمانة واستمرتْ عيني بمتابعة العائلة وزيارتهم لجدتهم، ليفاجئوها بحمل ابنتها للمرة الرابعة... عُذرًا يا رابع بناتهم فستكونين محتوى العائلة القادم. وعلى الرغم من علمي أن الجدة تعلم بالحمل، وأن المقطع كله تمثيل... تابعتهُ بالكامل كطفلٍ في الرابعة من عمره.

لم أستوعب حتى انتهى المقطع، يبدو أني احتجتُ لشيءٍ كهذا لتصفية ذهني. ألقيتُ نظرةً على (نسمة) التي قد غطت في نومٍ عميقٍ من ثاني دقيقة في المقطع على ما يبدو، كدتُ أحملها لغرفتها لكن رنين هاتفي استوقفني. هرعتُ لغرفتي حتى لا يوقظها الرنين، وحدقتُ النظر باسم المتصل من غرابة اتصاله في هذا الوقت... العقيد (رعد)!

«ألو»

أجبتُ بصوتٍ منخفض، مغلقًا باب الغرفة برفق.

«السلام عليكم (أديم)، لا يوجد وقتٌ لنضيعه... السفاح باغتنا بالجريمة الثالثة. تعال للعنوان الذي سأرسله لك»

لم يترك لي فرصةً للرد، أغلق الخط. ارتديتُ ثوبي سريعًا وأخذتُ

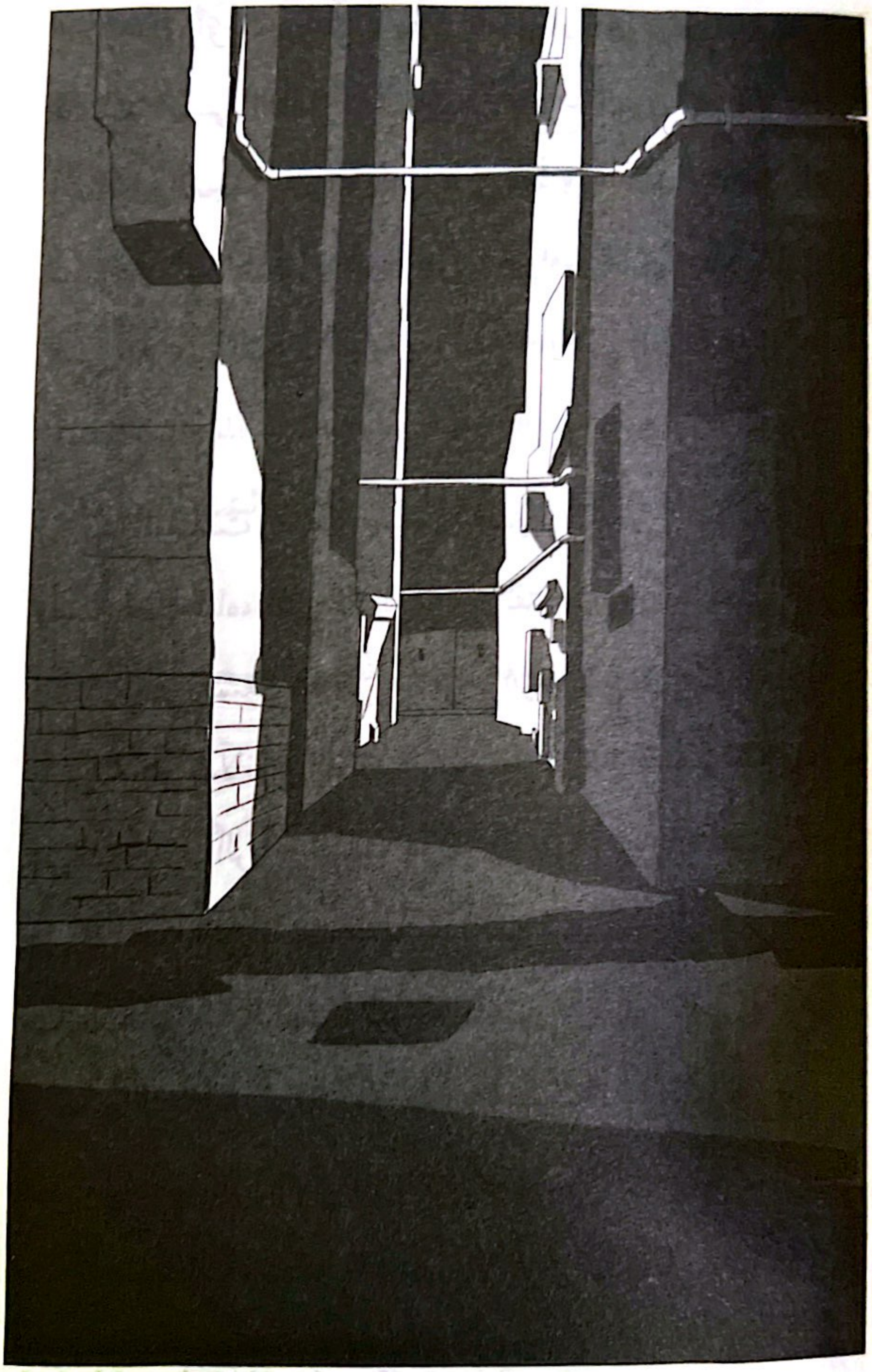
مفاتيح السيارة، لأكمل تزرير الثوب في الطريق للخارج... لعنه الله لم أتوقع أن يسرع بجريمته الجديدة! ألقيتُ نظرةً على (نسمة) التي استلقت على الأريكة جثةً هامدة، وقلبُها الذي لا يزال ينبض قد سقط من أحشائها للأرض! رمشتُ عدة مرات واختفى كل شيء، وعادت سليمةً نائمةً على الأريكة وقلبُها ينبض داخل جسدها. ارتعش جسدي لمجرد فكرة حدوث شيءٍ كهذا، اتجهتُ للخارج سريعًا وركبتُ سيارتي لأرى زوج أختي (منذر) للتو قد ركن سيارته أمام بيته... لم أملك الوقت لأسلم عليه حتى. انطلقتُ ورجلي لا تنفك عن دواسة الوقود، حتى كدتُ أتسبب بعدة حوادث مرورية... وكأني سأعيدهم للحياة لو وصلتُ مبكرًا!

وصلتُ لموقع الجريمة الذي اكتظ بسيارات الشرطة بأضوائها الحمراء والزرقاء، وصفاراتها الصامة للآذان. ركنتُ السيارة أمامها وخرجتُ نحو مسرح الجريمة، ليمنعني أحد رجال الشرطة...

«هذا فردٌ من أفراد الفريق، يستطيع الدخول»

سمعتُ صوت (رعد) لألمحه خلف رجال الشرطة، والذين قد شكلوا حصنًا لحراسة مسرح الجريمة... مانعين المدنيين من الدخول وعرقلة حركة التحقيق.

اجتزتُ رجال الشرطة لأوذي عيني بالنظر لجريمة السفاح، ولا أعلم حتى الآن كيف وقفتُ أمام ذاك المشهد المرعب! أن ترى المشهد على الصور الفوتوغرافية شيء، وأن تراه أمام عينيك شيءٌ مختلف تمامًا!



كعادة الوغد، طفلٌ وطفلة... قابعَان على أرضية الزقاق بلا قلوب. اكتسى الطفلُ بثوبٍ أبيض مفتوح الصدر قد غرق بدمائه الجافة، والفجوة الحزينة ذاتها التي تخترق أحشاء الأطفال الذين سبقوه... قد نالت نصيبها من اختراق جسده. شعرهُ الطويل البني تتلاعب الرياح الليلية به، تطمئنه وتسليه أن الله لن يهدر دمه المسفوح.

بينما استلقت الطفلة بلباسها المدرسي الذي اعتاد المجرم أن يلبسه لضحاياه، المريول الزهري. تفتحت أزراره لتظهر فجوة الصدر التي تشعر الناظر لها بوخزاتٍ أليمة في صدره، وكأنها اخترقته هو بدلًا من الضحية. شعرها المجعد القصير متجمدٌ بلا حراك، تحاول الرياح تسليته دون جدوى... بعد أن أعلن الحداد على صاحبته التي مكث معها سبع سنوات. قلوبهما تتطاير فوقهما صانعةً هالةً من الرعب، ليوجه المصور الجنائي كاميرته نحوها بوميضها الساطع... فيلتقط صورها المدمية للقلوب. توزع أفراد الطب الجنائي حول جثتَيهما للقيام بعملهم بكماماتهم وقفازاتهم، من رفع البصمات وفحص الجثث والأعمال الطبية الروتينية... وقد أيقنوا جميعًا أنهم لن يناموا الليلة بسلام.

رائحةٌ أمقتُها للغاية، انتشرت في مسرح الجريمة بشكل مريب... تلك الرائحة التي تداعب الأنوف وقت الدخول للعيادات والمستشفيات... رائحة المعقمات!

«تم التعرف على الجثث سيدي، (ياسر بن...) و(صفاء بنت...) البالغان من العمر سبع سنوات»

تحدث أحد رجال الشرطة مع (رعد)، الذي قد حضر لمسرح الجريمة كاشفًا رأسه الأصلع... وملامح وجهه أثبتت أنهم أيقظوه من نومه.

في الحقيقة لم يكن وحده بذاك المظهر الفوضوي، (عامر) و(سراج) وقفا بشعورهما المكشوفة الفوضوية... ينظران بعمق لتفاصيل الجريمة... في محاولةٍ يائسة لكشف أسرارها.

لحظة، مستحيل! دققتُ النظر فيه مرارًا وتكرارًا، لأتأكد أن عقلي لم يكن يمارس علي ألاعيبه المعتادة. نعم هو، إنه هو!

«يا رفاق، كنتُ أحتسي قهوتي هناك بالأمس في مثل هذا الوقت!»

أشرتُ إليه محدثًا الفريق، بإصبعي المرتعش المتجمد من البرد. في الجهة المقابلة للزقاق، عاليًا نسبيًا، قبعَ المقهى الذي احتسيتُ فيه قهوتي السوداء بالأمس... بعد رؤيتي لذلك المقنع!

وقوع الجريمة في الحي الذي كنتُ فيه، وأمام المقهى الذي احتسيتُ فيه قهوتي، وظهور السفاح أمامي قبلها بليلة... لا يترك مجالًا للشك. القاتل يريد إثارة انتباهي بهذه الجرائم منذ البداية. لم يعُد الموضوع يخص الانتقام من أهالي الضحايا، بل يخصني أنا شخصيًا... هذا المجرم يعرفني ويتحداني بهذه الجرائم.

طرف خيط

صمتٌ مهيب، فسحَ مجالًا لدقات عقارب الساعة أن تملأ أرجاء الغرفة... الغرفة التي عوّلَ عليها الشعب لتحقيق العدالة بعد الله. أن ينتظرك الجميع لفعل ما لا يستطيع أحدٌ فعله سواك، أن ترى الأمل المعلق عليك بعد الله في أعين أهالي الضحايا وذويهم، أن تنهال عليك أسئلة المراسلين والصحفيين بانتظار إجابات مقنعة وتصريحات مطمئنة... كل تلك ضغوطٌ هائلة يمر بها المحققون في الجرائم المتسلسلة بالذات.

«حسنًا، أن يكون المجرم شخصًا يستهدف الرائد (أديم) بجرائمه هو أمرٌ علينا أن نضعه بالحسبان والاعتبار»

قال المقدم (عامر)، بعينيه العسليتين اللامعتين اللتين طغى عليهما النوم والتعب... في الحقيقة كان التعب قد طغى على الجميع. فلم ينم أحدنا أو يعُد لبيته بعد مباشرتنا لمسرح الجريمة قبيل الفجر، كان علينا التجمع لتحديد عجلة سير القضية وهيكلها.

«نضعه بالحسبان؟! لم يعد هناك مجالٌ للشك، المجرم هذا يريد لفت انتباهي وهو شخصٌ أعرفه أو يعرفني!»

انفعلتُ ناظرًا لـ (عامر) بعينين فُتِحتا على مصراعيهما، على الرغم من أني شخصٌ قليل الانفعال.

«وتريد أن تقنعنا بنظريتك وأنت لا تعرف حتى من هذا الذي قد يلاحقك؟! إما أن تأتي لنا باسمٍ للنظر في أمره أو أن تلتزم بما بنيناه سابقًا!»

كان انفعالهُ متوقعًا، نظرًا لملامحه الحادة المطابقة لطباعه... ليلتفت نحو (سراج) و(رعد) حتى يحددا مواقفهما.

أخذتُ نفسًا عميقًا وهدأتُ من انفعالي حتى لا ترتفع الأصواتُ أكثر، لأقول بعد ذلك بكل هدوء:

«كن منطقيًا يا رجل، حتى الطفل (ياسر) في الجريمة الأخيرة لم يكن من مدرسة الحارس (حمدي)! فحتى سير القضية القديم لم يعُد به اسمٌ نستطيع ملاحقته والبحث في أمره، ناهيك عن أن التواصل مع أقارب (حمدي) لم يُجدِ»

تدخلَ الرائد (سراج) أخيرًا قائلًا:

«ربما اختارَ طفلًا من خارج المدرسة هذه المرة حتى يبعد التهمة عن نفسه»

كدتُ أرد عليه لولا أن (رعد) سبقني:

«من الصعب اعتقاد ذلك خصوصًا أنه مفقودٌ الآن، فإما أنه هاربٌ فلا فائدة من تمويهه باختياره لضحية من مدرسة أخرى... أو بريء من كل هذه التهم من الأساس»

كان حالُنا يُرثى له، وقفَ (رعد) بجانب السبورة واضعًا يديه خلف ظهره، (عامر) جلس على مكتبه ونظرهُ للحائط بشعره الفوضوي، (سراج) استندَ على الحائط بجوار مكتبه والإرهاق واضحٌ على وجهه الأسمر... بينما وقفتُ أنا على باب الغرفة المغلق مقلبًا بين النردين بحرارة.

تنهد (سراج) بعمق، فاركًا عينيه بيديه قائلًا:

«(أديم)، أرجوك فكر أكثر... هل من عداوات سابقة تجعل أي أحد يود لفت انتباهك وتحديك؟ ربما مجرمٌ حبسته منذ زمن بعيد؟»

كان لساني على وشك النفي، قبل أن يتذكر عقلي جملة قيلت لي... لن يمحوها حتى الخرف!

«علنا نلتقي مجددًا يا (أديم)»

قالها لي أغربُ وألطفُ مجرم قابلته في حياتي، قبل دخوله لسيارة المصحة مصفَّد اليدين... أحتار في تسميته مجرمًا أصلًا.. خاطف الأطفال.

«(وحيد)! خاطف الأطفال في (الرياض)، قبل سنتين وقت دخوله للمصحة توعدني بأننا سنلتقي مجددًا!»

قلتُ وذهني يحترق جراء استرجاع الذكريات الأليمة، متحركًا كالمجنون في أنحاء الغرفة.

«أليس هذا هو المجرم الذي كان يختطف الأطفال ليلعب معهم ثم يعيدهم لأهليهم دون سوء؟»

تساءل (رعد) وقد لمعت عيناه، ناظرًا لي مع بقية الفريق وهم ينتظرون مني إجابة... كيف غفلتُ عنه؟!

«بلى بلى هو، ألقيتُ القبض عليه مع رجال الشرطة... بعد أن نصبتُ له فخًا خبيثًا جعلهُ يشعر بالخيانة»

أجبتُ متكئًا على السبورة، والنردان يتحركان بين يدي بسرعة.

«مستحيل، (وحيد) احتجزته المصحة تحت الحراسة المشددة... وهروبه أشبه بحج البقرة على قرونها»

قال (سراج)، لتتزامن جملته مع إرعاد السماء المدوي.

«علينا أن نتأكد بأنفسنا، أهذا الهاتف رسمي؟»

سألتُ (رعد) الذي أومأ برأسه، بحثتُ عن رقم تلك المصحة على صفحة قوقل... متجهًا نحو الخط الثابت بالمكتب.

تحركت أصابعي بين أرقام الهاتف لأتصل، محوّلًا السماعة للمكبر ليجتمع حولي الفريق. شعرتُ وكأن الدقائق والساعات قد مضت قبل أن يرد علي الموظف، والسماء ترسل رعودها وبروقها التي اخترقت المكتب... متزامنةً مع اللحظة الحاسمة.

«معك الرائد (أديم أحمد) من المباحث الجنائية، أود الاستفسار عن المريض (وحيد بن...) لديكم»

«لحظات من فضلك»

مضت تلك اللحظات كالساعات على فؤادي، وأنفاس الفريق المتقطعة حولي تزيد من توتري مع زخات المطر الخفيفة التي بدأت بالهطول... يا الله هذا هو خيطُ الأمل الوحيد عندنا فلا تردنا خائبين.

«سيدي، (وحيد بن...) لم يعُد في المصحة... لقد تم إطلاق سراحه والحكم بعلاجه منذ ستة أشهر»

تراجعتُ للوراء والتصقتُ بالجدار، مبتلعًا ريقي بالقوة... هل (وحيد) فعلًا هو السفاح الذي نطارده؟!

«شكرًا لك»

أغلقَ (عامر) الخط شاكرًا الموظف، بعد أن خيم الصمتُ

والدهشة وقليلٌ من الراحة على الغرفة... فبعد كل شيء قد يكون هذا هو المجرم الذي أقلق مضاجعنا.

رنَّ هاتف (رعد) وأسرعَ بالرد، لتتغير ملامحه مجددًا قبل أن ينتهي من المكالمة... محدِّقًا بنا باستغراب... مع المحافظة على بروده. بادلناه نظراته منتظرين نطقه وإخباره بما سمع، وليته لم ينطق!

«يا رفاق، الممرض (أسامة) وُجِدَ مقتولًا في بيته!»

لم ينطق أحد، عم الصمتُ الغرفة مجددًا. أنتعامل مع خروج (وحيد) من المصحة، أم نبحث في أمر قتل (أسامة)... مع التغير الجذري لسير القضية في حال اخترنا أحدهما!

«حسنًا، لا وقت لدينا وعدد الضحايا يزداد بشكل مخيف. (سراج) و(أديم) سيبحثان بأمر (وحيد) وسير القضية معه، وأنا و(عامر) سنبحث في أمر (حمدي) وسير القضية معه... علينا الانقسام والتحرك سريعًا. إذا استجد شيءٌ مع أحدنا فيجب عليه إبلاغ الآخر».

(الرياض)

ربيع الأول، ١٤٣٦ هـ

نقطة تحول

الكم الهائل من المعلومات مع سباق الزمن، جعل مهمة معالجتها صعبةً مرهقة. أن يسير التحقيق على جبهتين متناقضتين تمامًا، أمرٌ شاق للغاية... حتى بعد الانقسام.

استمرَّ (سراج) بالعبث بقلمه الأزرق، جالسًا بجانبي ونحنُ نترقب المريض بتوتر... راجين الله أن يظهر في اللحظة القادمة وقد تأخر الممرضون في إحضاره. منذ تكليفنا بمهمة البحث في أمر (وحيد)، كانت الخطوة المثلى هي الذهاب للرياض وزيارة المصحة التي أُدخِلَ لها... واستجواب من خالطه من مرضى وممرضين. ها نحنُ ذا...

دخل (عبدالوهاب) بلباس المحجورين عقليًا، مكبل اليدين والقدمين... يقوده ممرضان بكل هدوء وحولهم رجلان من رجال الأمن. اختصت تلك المصحة باحتجاز وعلاج المجرمين الذين يعانون من أمراض واعتلالات نفسية، وكم كان منظرهم محزنًا لأبعد الحدود. حتى وإن كان المسمى الصحيح لهم «مجرمين»... هل اختاروا أن يكونوا كذلك؟

أجلسهُ الممرضان على الكرسي أمامنا، تملكت عيناهُ الكبيرتان حزنًا عميقًا... تساقطت جفونه وترهلت جراء تقدمه في السن. الهالات السوداء المتراكمة تحت عينيه أثبتت انعدام نومه، ونظرتهُ الباردة الخالية من المشاعر لنا أوحت بصغر الدنيا في نظره... وعدم خوفه وثقته بكل من على الكوكب... إلا بشخص واحد في اعتقادي... (وحيد).

كان (عبدالوهاب) هو الشخص الوحيد الذي تكلم معه (وحيد) منذ دخل المصحة حتى خرج، كما أخبرنا الممرضون ومدير المصحة.

«سيد (عبدالوهاب)، أخبرنا عن صديقك (وحيد)»

شعرتُ أن علي مناداته بلقب السيد، هذا الرجل مهما فعل يبقى كبيرًا في السن وعلي احترامه.

ظل (عبدالوهاب) ينظرُ لنا ببرود دون إجابة، يتأمل ملامحي وملامح (سراج) في صمت وبرود تامين.

«سيد (عبدالوهاب)، أخبرنا عن صديقك (وحيد)»

كرر (سراج) السؤال عليه بصوتٍ أعلى هذه المرة، مقتربًا منه أكثر.

لا شيء، لا ردة فعل ولا أدنى استجابة لحديثنا معه... كما قال لنا مدير المصحة بالضبط. سبق وأخبرنا أنه لن يستجيب لنا فهذه عادته حتى مع الممرضين، نادرًا ما كان يتحدث وكان رفيق حديثه الوحيد هو (وحيد). علمنا وقتها أن لا فائدة من استجوابه وسؤاله، شكرنا الممرضَين اللذَين ساعداه على النهوض... ثم توجها نحو الباب للمغادرة.

«ليس (وحيد) بقاتلٍ ولا يملك هذه الوحشية التي في عقولكم، قلبه أطهر من قلوبنا جميعًا»

نطقَ (عبدالوهاب) أخيرًا وهو يغادر، بنبرة مبحوحة بطيئة للغاية... تخللها السعال الشديد. لكن فرحتنا لم تتم بنطقه، فما كان ليعطينا أكثر مما أخذنا... أصر على المغادرة واستمر الممرضان بقيادته للخارج.

سأل (سراج)، ناظرًا لي بعينيه اللتين حُرِمتا لذة النوم:

«ماذا الآن؟»

أجبتُهُ قائمًا من مكاني، متجهًا للخارج فلم يعُد بإمكاني المكوث في المصحة أكثر من ذلك... وإلا فقدتُ عقلي:

«نعود للطائف فلا فائدة من مكوثنا أكثر، لنستكمل التحقيق من هناك»

طلبني برجاء وهو يتبعني، معدلًا شماغه الأحمر:

«أريدك أن تخبرني قصتك مع (وحيد) بالكامل، دون أن تترك منها أي تفاصيل»

لم أجادلهُ في طلبه وابتدأتُ القصة مباشرةً، ونحنُ نغادر المبنى:

«لا أخفيك يا (سراج)، ما قاله (عبدالوهاب) عن (وحيد) صحيح... إن لم يكُن تغير خلال فترة مكوثه هنا. لم يتعد جُرمُ (وحيد) اختطاف الأطفال وكان يلعب معهم ويتسلى، لم يؤذِ منهم شعرةً واحدة بل على العكس... بعضُ الأطفال الذين اختطفهم أحبوه وعادوا لأهليهم سعداء! بالطبع أنا لا أدافع عن فعله فهو مخالفٌ للقانون حتمًا، لكن وحشية المجرم في قضيتنا بعيدة كل البعد عن طبيعة (وحيد)»

قال (سراج) معترضًا على تعاطفي الكبير مع (وحيد):

«لكن اعتلالاته النفسية قد تمكنه من ارتكاب جرائم كهذه، خصوصًا أنه توعدك في آخر لقاء لك معه»

أكملتُ:

«نعم صحيح، لكن لِمَ لم يؤذني أنا شخصيًّا أو أحد أفراد عائلتي؟ دعني أخبرك بالقصة كاملة...»

قاطعني (سراج) مما ضايقني كثيرًا:

«عذرًا على المقاطعة، هل تأكدت من وضعهم للحراسات أمام منزل أختك؟ الحذر واجب»

أومأتُ برأسي ونحنُ نركب السيارة، تحت سماء نجد وجوها الغائم في ذاك الوقت من السنة... قائلًا:

«نعم وضعوا أربعة رجال من المباحث حول المنزل، وعند مدخل الحي ومخرجه وضعوا أربعة آخرين... ماذا عن منزلك ومنازل بقية الفريق؟»

اكتفى بالإيماء وهو يتمدد على مقعده.

«ابتدأت قصتي مع (وحيد) قبل سنتين بالضبط، حين كثُرَت حالات اختطاف الأطفال هنا في (الرياض)، بنفس النمط والطريقة... كان يستدرجهم من مدارسهم ويختطفهم من هناك ليلعب معهم ألعاب الفيديو ويزودهم بالكثير من الحلوى. وقتها تم تعييني لأباشر القضية مع مجموعة من المحققين، وقد كان جميعهم يفكر بالطريقة التقليدية لإلقاء القبض عليه... لكن عقلي أبى إلا أن يخالفهم فلن نستطيع إمساكه بالطرق القديمة... علمتُ أنه ذكي للغاية ولن يقع بسهولة»

سكتُّ قليلًا لأركز بالطريق المزدحم، كعادة عاصمتنا الحبيبة المكتظة بالسكان... وقد اشتدّ تركيز (سراج) وتعطّش لمعرفة باقي القصة.

«عند تحقيقنا مع بعض الأطفال الذين كان يستدرجهم (وحيد)، قالوا لنا أنه كان يحدثهم عن طريق بعض مواقع التواصل أو مجموعات الاتصال على أجهزة ألعاب الفيديو... وأتتني الفكرة المثلى للقبض عليه... لعب دور طفلٍ يسيل لعاب (وحيد) لخطفه واللعب معه. أنشأتُ حسابًا على مواقع التواصل مستخدمًا صورة أحد الأطفال من الإنترنت، وبدأتُ بلعب دور الطفل (عبدالله) باستخدام صور وهمية ومنشورات تنم عن طفولة تامة... ومكثتُ قرابة الشهر حتى تواصل معي حسابٌ مجهول يود مصادقتي. كان الوقت قد حان آنذاك لإبلاغ الفريق بخطتي المستقلة، وعلى الرغم من غضبهم لمخالفتي لهم... إلا أنهم أعجبوا بالخطة وتحول سير التحقيق لها وتركيز الجهود»

توقفتُ لالتقاط أنفاسي، ثم وضعتُ كلتا يدي على المقود مكملًا:

«تمنيتُ من أعماق قلبي أن يكون هذا المجهول هو (وحيد)،

بعد أن أوهمته بصداقتنا وعاش معي قصة صداقة مختلفة... وكما تمنيت... كان هو (وحيد) بعينه. اتفقنا أن نلتقي بعد المدرسة وسميتُ له إحدى مدارس (الرياض) المشهورة، واختار هو مكان مقابلتي خلف فناء المدرسة... ليكون رجال المباحث بانتظاره هناك بالأصفاد. وقال لي وقتها ورجال الشرطة يقتادونه للسيارة، مصفد اليدين وعيناه تحكيان شعوره بالخيانة والحقد: «علنا نلتقي مجددًا يا (أديم)» واعترف بكل جرائمه بخطف الأطفال السابقين... ولم أسمع عنه شيئًا منذ ذلك الحين... حتى الآن»

انتهت قصتي والمطار يتراءى لي من بعيد، لأصنف ذلك اليوم من أشقى أيام حياتي وأكثرها إرهاقًا... بينما التزم الرائد (سراج) الصمت قبل أن يعقب:

«اللعنة يا رجل، لهذا السبب هو حاقدٌ عليك ويريد الانتقام... لقد أوهمته بحب وصداقة مزيفة ليتضح له بعد ذلك أنك السبب في إلقاء القبض عليه. المشكلة الآن أنه مثل (حمدي) تمامًا، لا يوجد من نستطيع سؤاله عنه... ولا نعلم أي طريقة للوصول إليه»

تنهدتُ بعمقٍ أخرجَ الكثير من أنفاسي المتوترة، قائلًا:

«علينا معرفة ما يريد مني بالضبط، الآن وقد لفت انتباهي.

كل الحقائق الموجودة لدينا تشير إليه، حتى طوله المسجل في النظام مطابقٌ لطول المقنع حسب ما رأتهُ عيني»

سرح (سراج) بتفكيره كثيرًا قبل أن يقول:

«أن يتحول شخصٌ كان يلاعب الأطفال الذين يختطفهم بتلك اللطافة، إلى سفاح يقتلهم ثم يخرج قلوبهم من أحشائهم... أمعقولٌ أن تحوله أيامه في المصحة ورغبته في الانتقام؟ وكيف يكون انتقامه منك بأن يقتل أطفالًا عشوائيين لا صلة لهم بك؟!»

أجبتهُ وسيارتنا تدخلُ أرض المطار، متجهةً نحو مواقف السيارات:

«كل شيءٍ وارد. أعتقدُ أنه يريد إثبات مدى ذكائه ودهائه بهذه الجرائم، وأني لن أستطيع الوصول إليه مهما فعلت... فبعد الفخ الذي وقع فيه جُرِح كبرياؤه... وأصبح كالذئب الجريح الذي ليس لديه شيءٌ ليخسره»

(الطائف)

ربيع الأول، ١٤٣٦ هـ

ارتياحٌ وقلق

«هلا توقفتَ رجاءً!»

امتعضَ (عامر) رامقًا إياي بنظرةٍ منزعجة، ضاغطًا فكيه وقبضتيه.

كادت أعصابي تنفلتُ عليه لولا تذكري لسبب وجودي معه بتلك الغرفة أصلًا، غرفة التحقيق التي حلق فوقها التوتر العارم والقنوط... وضعتُ النردين الأسودين - اللذَين سبب تقارعهما إزعاج الفريق - بجيبي وأسندتُ ظهري على الكرسي. عادَ (عامر) للنظر للوحة أمامه بعينيه العسليتين الغاضبتين، أزحتُ نظري عنه لأبصر قائد الفريق... العقيد (رعد) الذي شبك يديه وأسند ذقنه عليهما... ناظرًا للحائط مترجّيًا أن ينتهي كابوسنا في أي لحظة.

خرجَ (سراج) عن صمته، مقتربًا من لوحة التحقيق التي حوت كل المعلومات والصور الخاصة بالقضية... مدققًا النظر بها قائلًا:

«غير معقولٍ يا رجال، أن تنقطع أخبارهما هكذا!»

كان يفكر بصوتٍ عالٍ، وقد قال ما يدور في خلدنا جميعًا، مضى

أسبوعٌ الآن دون أن يجد جديدٌ عن أي منهما... وصورهما قد ملأت الصحف وقنوات الأخبار ومواقع التواصل. الوقتُ يمضي، وكل دقيقة تمر تهدد حياة طفل.

لامسَ (سراج) اللوحة التي علقناها على الجدار، ليقع بصري على (وحيد)... بأحدث صورةٍ له وقد تغيرت ملامح عينيه البريئة لأخرى شرسة. مؤلمٌ قاسٍ ما فعلته المصحة به، سنتان فقط كانتا كفيلتين بتغيير الكثير من ملامحه. اجتمعت الهالات السوداء تحت عينيه، على وجهه الأبيض الذي امتلأ بالبثور... وشعره المحلوق الذي حافظ على سواده بوصوله الثلاثين من عمره.

بجانبه صورة لـ(حمدي)، بشماغه المهترئ المتآكل وابتسامته البريئة اللطيفة وظهره المقوَّس... حاملًا هدية تكريمه من مدير المدرسة الذي وقف بجانبه. ما زال عقلي يرفض أن هذا الكهل الذي يحمل وجهًا مليئًا بالطيبة والبساطة، هو سفاحنا الذي أتعبنا... لكن عمَلنا علَّمَنا أن لا ننخدع بالمظاهر.

قال (رعد) مطلقًا تنهيدةً عميقة، خالعًا شماغه لتظهر صلعته:

«لا تيأسوا يا رجال، مصير المجرم أن يترك خلفه أثرًا... بشِّر القاتل بالقتل ولو بعد حين»

ناقضت نبرته عبارته بشدة، كانت تنم عن قنوطٍ شديد وقهر... مع تنهيدته تلك.

حسنًا، من المؤكد أن شيئًا فاتني دون أن ألاحظه، خصوصًا بعد أن لفتَ السفاح انتباهي بآخر جريمة... عقدتُ ذراعي وسددتُ بصري للأطفال القتلى.

(أنس)...

(داوود)...

(ياسر)...

ماذا فاتني؟

(أسيل)...

(غدير)...

(صفاء)...

هل من مجيب؟

رنّ هاتف (رعد) مما جعلَ الفريقَ بأكمله يسدد بصره نحوه، هاربًا من أفكاره السوداء وتحليلاته الجنائية. أجابَ المتصل فورًا وقلوبنا معه، أرجوكَ يا الله لا تجعلها جريمةً جديدة للسفاح!

«حسنًا، نحن بانتظاركم... شددوا عليه الحراسات ولا تغفلوا عنه لثانية!»

وقفَ (رعد) بعد إنهاء المكالمة ووقفنا معه، متلهفين لسماع ما أخبره به المتصل... مع أننا نتوقع ما وصله لكننا أردنا سماعه يقولها. نطقَ وعيناه تلمعان:

«وجدوا (وحيد) بنقطة تفتيش في (الرياض)، وسيكون عندنا في غضون ساعات»

***

الشيء الوحيد الذي لا تبالغ فيه السينما والرواية البوليسية، لحظة التقاء المحقق بغريمه... يشتعل (الأدرنالين) وتتوتر الأعصاب... للمحقق والغريم على حد سواء. ربما الفرق أن الغرفة هنا ليست بإضاءة صفراء خافتة، معلقة فوق طاولة الاستجواب... بل امتلأت بالأنوار البيضاء مما يزيد توتر الشخص المستجوب. ألصقتُ وجهي بالزجاج الفاصل عن غرفة الاستجواب، مترقبًا لحظة دخوله أيما ترقب... حتى فُتِحَ الباب.

ولجَ الغرفةَ ناظرًا للأمام، دون التفاتةٍ منه... مصفد اليدين والرجلين. أجلسَهُ رجل الأمن على كرسي الاستجواب وغادرَ الغرفة سريعًا، بينما حدق (وحيد) بالزجاج الذي وقفتُ خلفه مع فريق التحقيق... بعينيه المكومتين للهالات السوداء تحتهما. على الرغم من أننا نراه ولا يرانا، إلا أنني شعرتُ أنه يبصرني ويتأمل ملامحي! كل تفاصيله طابقت الصورة التي التقطت له، قبل تسريحه من المصحة منذ ستة أشهر... بشعره الأسود المحلوق وعينيه البنيتين... سوى بشرته البيضاء التي اكتسبت سُمرةً.

ربت العقيد (رعد) على كتفي قائلًا:

«هيا يا (أديم)، تذكر أن الوقت محسوبٌ علينا ولا نستطيع احتجازه أكثر من ثمانٍ وأربعين ساعة»

أطلقتُ تنهيدةً عميقةً وأومأتُ برأسي، والفريق يلقي نظراته على (وحيد). انطلقتُ نحو غرفة الاستجواب سريعًا ودخلت، لتلتقي أعيننا أخيرًا... دون أن أتوقع ردة فعله الغريبة. أطلقَ ضحكةً تهكمية هازًّا رأسه، بينما حافظتُ على هدوئي واتزاني... وعقلي يتساءل عن سبب ردة فعله تلك.

«وجبَ علي أن أعرف أنك وراء كل هذا يا (أديم)!»

قال وهو يتفحصني بعينيه حتى جلستُ أمامه، متبسمًا.

«ها قد التقينا مجددًا يا (وحيد)»

قلتُ مبادلًا إياه الابتسامة، مشبكًا يدي على الطاولة... بكل هدوء وثقة مطلوبة.

مكثتُ بضع لحظات أتأمله ويتأملني، دون أن أنطق بحرف واحد... لأسلوبٍ أتبعه في كل استجواباتي... وهو مطلوبٌ بشدة هنا فنحنُ لم نمسك دليلًا يدين (وحيد) بأي جريمة. دقائقُ مضت، لم أتزحزح فيها لوهلة... تحت الإضاءات البيضاء المزعجة للعين.

«تعلمُ أنك لا تستطيعُ احتجازي أكثر من يومين»

كسرَ دائرة الصمتِ أخيرًا، ناظرًا لي بثقة عمياء... ليريح ظهره على كرسيه ويضع يديه المصفدتين على حجره. فعلَ ما أردتُهُ

بالضبط، أن يبدأ هو الحديث... لأقول له مقتربًا:

«ثقافتك القانونية تبهرني، لكن يبدو أنك لا تعلم أني أستطيعُ إصدار منع سفر عليك حتى انتهاء القضية... أستطيعُ منعك حتى من مغادرة المدينة... وقد تستمر القضية لأشهر أو سنوات... لذا فكر مليًّا بالتعاون معي»

ضغطَ فكيه وتحركت عضلات وجنتيه، ليتحول وجهه المتبسم لآخر عبوسٍ قمطرير.

وجهتُ سؤالي الأول لاستغلال فرصة غضبه، قائمًا من مكاني:

«أين كنت في الأول من شهر صفر؟»

مشيتُ في أرجاء الغرفة منتظرًا إجابته، وقد نظر للأمام بعبوس بمؤشراتٍ لا تدل على التعاون... قبل أن يفكر مليًّا بما سيلحقه إن لم يتجاوب.

«لستُ أنا من تبحثُ عنه أيها المحقق الحاذق، لم ولن أكون يومًا قاسيًا على طيرٍ من طيور الجنة»

«كُن مستقيمًا معي وصريحًا ولا تتلاعب، وأجب عن أسئلتي دون ثرثرة»

كنتُ هادئًا جدًّا معه لأواكب هدوءه، حائمًا في أرجاء الغرفة بطرقاتِ نعالي التي تعمدتُ إظهارها.

اعتدلَ في جلسته وهو ينظرُ للأمام، لم يحرك عينه للحظة ليتابع حركتي... ليقول مطلقًا تنهيدةً عميقة:

«سأريحك من كثرة الأسئلة لتبذل وقتك الثمين في البحث عن السفاح الحقيقي. بعد بذل كل الجهود خلال العامين المنصرمين في العلاج... خرجتُ من المصحة ولله الحمد منذ ستة أشهر... ومن حينها وأنا أتنقل بخيمتي في (الربع الخالي) كجزءٍ من التنفيس والترويح والاتصال مع الطبيعة. ولم ألبث قبل بضع ساعات أن أعود لحياة المدينة لتستوقفني نقطة التفتيش ويتضح لي أني مطلوبٌ من قبلكم حتى أني...»

بدا واثقًا في كلامه للغاية، حتى حركات يده وعينيه وجسده كله لم تكشف عن أي توتر... مما صدمني قليلًا قبل أن أنفجر ضاحكًا من كلامه وأصفق قائلًا:

«برافو برافو، أتعتقد أن حجة الغياب سهلة التلفيق والتزوير هكذا؟ (الربع الخالي) أجل؟»

عدتُ لكرسيي وهو يرسل علي نظراته المستنكرة مقطّبًا حاجبيه،

قبل أن يأخذ نفسًا عميقًا ويستكمل بشيء من السخرية:

«يبدو أنك تتمنى من أعماق قلبك أن أكون أنا السفاح، اتق الله يا رجل! أيائسون أنتم من العثور عليه لهذه الدرجة؟ دعني أرحك من عناء هذا الاستجواب. أملك بعض التسجيلات والفيديوهات بمنتصف الصحراء بالتواريخ والأوقات على هاتفي الذي صادرتموه، ناهيك عن (عباس) الذي رافقني طيلة تلك الفترة... والذي احتجزتموه منذ عدنا لـ(الرياض)»

التزمتُ الصمتَ بعد حديثه، إن كان ما يقوله صحيحًا... فنحنُ في طريقنا للعودة للصفر! هل تمنيتُ أن يكون هو السفاح حقًّا؟ رن هاتفي معلنًا عن وصول رسالة جديدة، ألقيتُ نظرةً على هاتفي وإذ به (رعد) يأمرني بالخروج من الغرفة قبل أن أفسد الاستجواب. غادرتُ الغرفة وعقلي يتخبطُ بكل اتجاه، لأدخل الغرفة المقابلة خلف الزجاج... متلاعبًا بلحيتي محدقًا بـ(وحيد). وقفَ (رعد) وحده هناك، قال وهو يضع يديه على الزجاج:

«أرسلنا للفريق التقني ليتحققوا من المقاطع وتواريخ التقاطها الحقيقية، وذهب (عامر) مع (سراج) لاستجواب (عباس)... لننتظر النتائج دون عجلة»

***

«الشهر السادس منذ بدئي رحلة التعرف على الذات، أشعرُ أني للتو بدأتُ أتعلمُ عن ذاتي الحقيقية وغاياتها...»

تفلسفَ (وحيد) وسط الرمال الذهبية، وخلفه خيمته الكبيرة بين كثبان الرمل وقت شروق الشمس. رفيق رحلته (عباس) يضع الإبريق على النار المشتعلة، ويلوح بيديه للكاميرا التي توسطها وجه (وحيد).

أوقفَ (عامر) المقطع ورفع نظره لنا قائلًا:

«أكّدَ التقنيون صحة المقاطع والتواريخ التي تزامنت مع وقوع الجرائم، وتطابقت أقوال (عباس) مع (وحيد) بالتمام»

قال (رعد) مقتربًا من الزجاج، مدققًا النظر في (وحيد) الذي بدت عليه آثار الإرهاق جراء قضاء الساعات بتلك الغرفة المقلقة:

«علينا أن نطلقه يا (أديم)، لديه حجة غياب قوية وليس لدينا ما يدينه البتة»

أومأتُ برأسي قانطًا، لائمًا نفسي على الشك بذاك المسكين... قبل أن يفاجئنا رنين جوال العقيد. أجابَ عليه سريعًا وما لبث أن فتحَ عينيه على مصراعيهما ملتفتًا لنا، بعد أن سمع ما أخبره به المتصل... لينهي المكالمة قائلًا:

«نحن قادمون»

أذاع لنا الخبر الذي قطع أي شكوك لدي حول (وحيد)، وزاد تأنيب ضميري حين اعتقدتُ أنه سفاحنا:

«السفاح داهمنا بالجريمة الرابعة، وأضاف لنا مفاجأة صغيرة على مسرح جريمته مع الطفل والطفلة... جثة الحارس (حمدي)»

تلك الجريمة بكل بساطة أعادتنا لنقطة الصفر، وحطمت كل نظرياتنا حول المشتبه بهم... فكيف لـ(وحيد) أن يرتكب الجريمة وهو محتجزٌ عندنا... وكيف لـ(حمدي) أن يكون السفاح ويكون أحد ضحاياه في الوقت ذاته؟!

«اللعنة! اللعنة!»

صرخَ (عامر) ضاربًا الزجاج بقبضته، لينفس عن قليلٍ من اليأس والإحباط الذي أصابنا. قال (رعد) مخاطبًا رجل الأمن الذي وقفَ على مقربةٍ منا:

«أطلق سراح (وحيد) و(عباس) فورًا، هيا يا رفاق لنذهب فلا وقت للانهيار حتى»

سحقًا، السفاح يتلاعب بنا منذ البداية... فقد احتجز (حمدي) وأخفاه ثم قتل الممرض (أسامة) ثم (حمدي) بعد ذلك... إلى أين سيصل ومتى ينتهي كابوسه المريع؟!

نقطة الصفر

(أنس)...

(داوود)...

(ياسر)...

(ماجد)...

تحدثوا إلي رجاءً، مالكم لا تنطقون؟!

(أسيل)...

(غدير)...

(صفاء)...

(أريج)...

ماذا عنكن، أعلم أن الوغد أخرسكن للأبد... ألا يمكنكن استثنائي أنا فقط؟ كلمة واحدة فقط أحتاجها، اسمٌ واحد.

كان الطفل (ماجد) والطفلة (أريج) أحدث ضحايا السفاح، وقد وضعهما بطريقته المختلة ذاتها بأحد الأزقة الليلة... مضيفًا عليهما الكهل المسكين (حمدي) حارس المدرسة.

«هيا يا (أديم)، نل قسطًا من الراحة ولنستكمل العمل غدًا»

قال لي العقيد (رعد) مربتًا على كتفي، وقد آذى السهر مقلتيه.

«لأصدقك القول، منذ انضممتُ للفريق والنوم عدوي... خصوصًا حين أفكر أني قد أكون السبب في مقتل هؤلاء الأبرياء»

أجبتُهُ ناظرًا لأسماء الضحايا وصورهم المعلقة تحتها، على الحائط البائس الخاص بغرفة التحقيق... أصبح منظرها جالبًا للاكتئاب خصوصًا عندما رجعنا لنقطة الصفر دون أن نجد جديد.

«كف عن هذا الهراء أيها الأحمق، كف عن لعب دور المنقذ يا رجل... نحن مجرد أسباب في هذه الدنيا والمنقذ هو الله... أرِح عقلك قليلًا»

قال وهو يتجه للخارج، هازًّا رأسه وكتفيه. كانت تلك المرة الأولى التي يتخلى فيها (رعد) عن رسميته، ويشتم بتلك الطريقة. غادرَ الغرفة وعدتُ للنظر في اللوحة التي علقناها على الجدار، ليقع

بصري على (وحيد)... الذي تشبعتُ اشتباهًا به ليتضح أنه بريء كان يتمرغ في رمال (الربع الخالي) وقت الجرائم.

صورة (حمدي) بجواره، هذا الكهل الذي يحمل وجهًا مليئًا بالطيبة والبساطة، والذي تحول من قائمة المشتبه بهم لقائمة الضحايا في سخريةٍ عجيبةٍ من السفاح بنا... وكأنه يتابع التحقيق معنا بالغرفة ويراقبنا.

استندتُ بظهري على الكرسي، زافرًا بحرارة وجفوني تلامس بعضها معطيةً عيني قسطًا من الراحة... آهٍ كم كانت الليلة مرهقةً ومخيبةً للآمال. لم أسمح لنفسي بالعودة للمنزل أو أخذ قسطٍ من الراحة، ليس بعد أن تلاعب بي السفاح هكذا ووجهني حيثُ يريد بالضبط... وكأنه يعرف طريقة تفكيري. لم أتخذ هذا القرار وحدي، عاد كل الفريق من مسرح الجريمة لغرفة التحقيق... محاولين وضع خط سير جديد للقضية لتبوء محاولتنا بالفشل.

لا شيء عن السفاح حتى الآن، وكأنه سرابٌ كلما اقتربنا منه ابتعد لننجرف خلفه ونضيع. ليس الوقتُ في صالحنا أبدًا، القتلى يكثرون وحيوات الكثير من الأطفال على المحك... فتحتُ عيني سريعًا وهرعتُ نحو اللوحة.

«مرةً أخرى، أتضرع إليكم أن تخبروني بشيء... أي شيء»

همستُ ويدي لا تترك عادتها في التقليب بين النردين الأسودين، مدققًا النظر في الضحايا وأسمائهم... ليقشعر بدني ويقف شعر جسمي حين لاحظت. إلهي، إلهي، إلهي... كيف لم ألحظ ولم أعرف منذ وقوع الجريمة الأولى... فالمجرم كان أمام عيني طوال الوقت!!

أمسكتُ رأسي بكلتا يدي، متراجعًا للخلف وعقلي يحلل البيانات كمعالجٍ تم إصلاحه للتو... ليعود لعمله الطبيعي المعتاد.

بالطبع، علمتُ الآن سبب اختيار ذاك السفاح للأطفال، وسبب اختيارهم هم بالذات، وانتزاع قلوبهم، ووجود ضحية ذكر وأنثى في كل جريمة، اختيار الأزقة أيضًا... اللعنة هل هذا معقول؟

(أنس) ـــــــ (أسيل)

(داوود) ـــــــ (غـــدير)

(يـــاسر) ـــــــ (صـــفاء)

(مـــاجد) ـــــــ (أريج)

(أديم) ـــــــ (أغصا...)

تطايرت الحروف الأولى من الأسماء أمامي وعقلي يحلل المعلومات بأقصى سرعة ممكنة، الحروف الأولى من أسماء الضحايا الذكور لم تكن إلا حروفًا تشكل اسمي... (أديم). أما الحروف الأولى من أسماء الضحايا الإناث فكانت تشكل اسم طفلتنا (أغصان) التي كانت تحلم طليقتي بإنجابها، السفاحة إن صح التعبير... نعم... أعتقد أن سفاحنا أنثى تُدعى (أسرار)!

يستحيل أن تكون تلك مصادفة، بل من سابع المستحيلات... اسم طفلتنا ذاك لا يعرفه أحدٌ سواي أنا وهي! أثقلت المعلومات عقلي ثم جسمي لأجلس على الأرض، قدماي لم تعد تتحملان الوقوف... أمعقولٌ أن تتحول من كنت أشاركها الحياة والحب... لوحشٍ شرسٍ كهذا؟!

كانت حروف اسمي قد اكتملت، على عكس حروف اسم طفلتنا... مما يعني أنها تخطط لجريمةٍ جديدة لطفلة يبدأ اسمها بحرف (ن). هل سترتكب جريمةً فردية هذه المرة؟!

(أنس)

(داوود) = (أديم)

(يـــاسر)

(مـــاجد)

(أسيل)

(غـــدير)　　=　(أغصان)

(صـــفاء)

(أريج)

(نـــ...؟)

نحن على أبواب جريمة خامسة وأخيرة. الآن عرفت الدافع وراء هذه الجرائم كلها، فلم يكن انفصالنا وطلاقنا عبثًا... لكن الغريب أن تتملك هي هذا السلوك السايكوباتي!

لحظة، خطرت ببالي طفلةٌ بحرف (ن)... لا لا... لا يا رب! تلك قطعةٌ مني فأحِطها بلطفك ورعايتك، (نسمة)!

(الطائف)، (شهار)

صفر، ١٤٢٧ هـ

ويومٍ كظل الرمح

«عليك أن تستمع لي جيّدًا يا هذا، إن مسستها بسوء فلن ترى النهار مجددًا!»

قال مفتولُ العضلات الأبيض، الخارق الوسامة بشعره الأشقر الناعم وعينيه الزرقاوين... مهددًا صديق عمره وكأنه مجرد غريبٍ التقاه للتو.

صفعه صديقه صفعةً أسقطت نظارته وأعادت تعيين إعداداته، ليعرّفه قيمته الحقيقية قائلًا:

«تركت فتاةً تفرق بيننا أيها الحثالة؟! أفِق يا (دوغلاس)، نحن لسنا طلابًا في الثانوية لـ...»

«اللعنة ليس الآن!»

انطفأت شاشة هاتفي لنفاد بطاريته، في لحظةٍ حماسية تحبس الأنفاس من مسلسلي المفضل. هذا ما كنتُ أخشاه، ماذا عساي أفعل الآن دون شاحني؟!

رميتُ بهاتفي بعيدًا لأنهض من سرير المُرافق بغرفة المستشفى،

مفكِّرًا بطريقة أقتُل بها الملل للساعات القادمة... وأنا حبيسٌ في الغرفة. نظرتُ لأختي (أبرار) التي استلقت على سريرها بلباس المستشفيات الزهري، غارقةً في نومها تحت تأثير المخدر الذي لم يرتفع كليًّا... ليميل رأسُها للشمال بشعره الأسود الفوضوي. شخيرُها دل على تعبها الشديد، فلم تكُن تلك عادتها أثناء النوم... ومن يلومها وقد قضى الأطباء الكثير من الوقت في جراحة جسدها.. هل أكون أنانيًّا إن تمنيتُ أن تستيقظ لنتبادل أطراف الحديث؟

وقفتُ على النافذة لأرى طرقات المستشفى التي خلت من المارة والسيارات، في تلك الساعة المتأخرة من الليل... كم هي كئيبة المستشفيات بشوارعها ومرافقها وموظفيها وكل ما يخصها! عجيبٌ أمرنا نحنُ البشر، نكره المستشفيات التي تكون بعد الله سببًا في علاجنا... أتساءل إذا كان الشعور متبادلًا من الأطباء والموظفين فيها.

تخلَّل البردُ عظامي فاستدرتُ عائدًا لسرير المرافق، كل مافي الأمر أننا نجحد نعمة الله علينا بوجود المستشفيات هذه التي نكرهها... هناك من يتمنى زيارتها ولا يجدها في بلده.. اللهم أدِم علينا النعم

وارزقنا شكرها. إلهي، كيف هو الحال بمن يعاني السقم ولا يجدُ منزلًا يؤويه ويدفئه في هذا الجو البارد؟

كدتُ أستلقي على السرير لكني تذكرتُ أن بطارية هاتفي نفدت، ولم أُحضِر شاحني وهاتف (أبرار) يختلف عن شركة هاتفي... ولم يكُن ذاك وقت نومي المعتاد بعد... عن سوء الحظ أحدثكم. تفحصتُ وجه (أبرار) الذي غط في نومٍ عميق، ليرتفع صدرها ويهبط جراء أنفاسها العميقة... وشخيرُها يملأ الغرفة. لا أمل في استيقاظها أبدًا، سأغادر المشفى بحثًا عن شاحن... حتى لو اضطررتُ لإحضار شاحني من المنزل فالحياة دون هاتفٍ لا تحتمل.

خرجتُ من غرفتها وأغلقتُ الباب بهدوء، لأمشي في الرواق الهادئ الذي خفضت إضاءته بحلول منتصف الليل... وصوتُ محادثةٍ هامسةٍ يجري في مكانٍ ما. تسارعت خطواتي ورائحة معقمات المستشفى تملأ أنفي، والكنزة الصوفية السوداء تؤدي واجبها على أكمل وجه... حاميةً صدري من برد الشتاء الذي امتلك القدرة على التسلل داخل الأروقة والغرف. وضعتُ يدي في جيوب الجينز الأزرق مخترقًا الرواق على عجل، حتى مررتُ بمكتب الممرضات

الذي اتضح أن المحادثة الهامسة دارت عليه... بين ممرضتين تحدثتا بكل شغف واهتمام بموضوعها ذاك.

«أيها الغريب، هلا حسمت أمرنا في موضوعٍ معين؟»

قالت إحداهما هامسةً، لأتوقف مكاني وألتفت لهما.

انفجرتا ضاحكتَين حين تسمرتُ كالأبله وكأني تحت تهديد السلاح، لألتفت لملامح تلك الفتاة التي استوقفتني... الحنطية ذات الشامة الصغيرة على وجنتها اليمنى. من الصعب أن تفوّتَ الأعينُ ملاحظة شامتها تلك التي ميزتها، على وجهها الطويل وضحكتها التي أظهرت أسنانها البيضاء المتراصة... مع عينيها العسليتين الناعستين.

«حسناً، لكن على شرط أيتها الغريبتان»

قلتُ مشاركًا إياهما الضحكة، متكئًا على المكتب.

«وما هو شرطك أيها الغريب؟»

سألت صديقتُها، ويدها تلامس وجهها المستدير الأبيض الشاحب.

«أن تعيراني شاحنًا أو تشحنا لي جوالي»

قلتُ واضعًا هاتفي على المكتب، متبسّمًا وعيناي لا تفارقان ذات الشامة.

«تم، الآن أخبرني... هل تؤمن بتفسير الأحلام؟»

سألتْ ذاتُ الشامة، فاصلةً شاحنها من المكبس لتضعه على الطاولة. عقدتْ ذراعيها في انتظار إجابتي، بينما انعقد لساني لوهلة من غرابة الموضوع الذي تريد رأيي فيه.

فكرتُ لبرهة قبل أن أقول:

«أؤمن به كعلمٍ موجود، وكمَلَكَةٍ يعطيها الله القليل من الناس... لكنهم كثروا في عصرنا هذا وكثُرَ دجلهم لذلك لم أعُد أصدق المفسرين الحاليين»

تهكمتْ ذاتُ الشامة مشيرةً لصديقتها ضاحكةً:

«أبشرك أن (مروة) تفسر كل حلمٍ يراودها في منامها عند جميع المفسرين»

ضربت (مروة) كتف صديقتها ضاحكةً قبل أن ترد:

«على الأقل لستُ مهووسةً بالعين والحسد كـ(أسرار)، وأخاف على أبناء إخوتي رغم قبحهم وشبههم الشديد بالقرود»

أعترف أني انفجرتُ ضاحكًا وقتها، على الصديقتين اللتين وثقتا بغريبٍ تريانه لأول مرة... حتى فضحتا بعضهما بعضًا. مسحتُ دموعي التي خرجت من شدة الضحك قائلًا:

«كلكم مخطئون ومبالغون، الأحلام أولًا من عالم الغيبيات ومن الصعب جدًّا الوثوق بالمفسرين... الذين قد يتحدثون من استاههم دون علم. الأفضل أن يصمت الإنسان عما يرى ولا يتبع الأحلام وتفسيرها، فما يدريكِ لعل أحلامك من الشيطان... وحين يرى هوسك وتصديقك للتفسيرات يعود ليرهقك بكوابيس أشد أرقًا... ليغم قلبك ويحزنه. وأما عن الحسد والعين فهما حق، لكن الوسوسة ورفض تصوير الأطفال خوفًا منهما فهذه مبالغة... علينا فقط تحصين أنفسنا وأطفالنا والتوكل على الله»

طيلة الحديث كانت (أسرار) الحنطية ذاتُ الشامة تراقبُ عينيّ باهتمام واضح، بينما بادلتُها النظر بين الفينة والأخرى متأملًا وجهها الذي ترتاح له العين.

قالت (مروة) مصفقةً بيديها:

«حكيم، حكيم أيها الغريب!»

قالت (أسرار) بعينين متلهفتين، مسندةً وجهها على يديها:

«لم نتعرف على اسمك أيها الحكيم الغريب»

«(أديم)»

عرفتُ باسمي مومئًا برأسي، لتلمع عينا (أسرار) وكأنها صيادٌ قد اقتنص فريسته.

«عاشت الأسماء يا (أديب)»

قالت (أسرار)، كادت تمد يدها لمصافحتي.

ضحكتُ هازًا رأسي لأصحح لها:

«لا لا، اسمي بالميم، (أديم)»

لم يكُن خطؤها ليُزعجني، فطالما أخطأ الكل باسمي الغريب... منذ الطفولة وتنمر الطلاب في المدرسة. اعتذرتْ ثم قالت:

«اسمٌ مميز بحق، أهنئ والديك على الاختيار الموفق»

أحرجتني فلم أستطِع الرد، اكتفيتُ بالابتسام والإيماء... واقفًا في مكاني. مرت لحظات صمتٍ محرجة، بدا شكلي غبيًا فيها... رجلٌ يقف صامتًا أمام ممرضتين تنظران له بصمت. أخذتُ هاتفي وشاحن (أسرار) قائلًا:

«علي أن أرحل الآن، شكرًا على الشاحن... سأعيده حال الانتهاء منه»

ودعتهما بكل ندم، لم أرغب بالرحيل أبدًا... لا أعلم لِمَ رحلت رغم أن (أبرار) نائمةٌ على الأرجح. يالغبائي وغباء تصرفي آنذاك، بدا على وجه (أسرار) أنها تريد الاستمرار في المحادثة لسببٍ ما... وأردتُ أنا الشيء ذاته... لكن لحظة الصمت المحرجة أجبرتني على التصرف السريع. عدتُ للغرفة وقلبي يؤلمني بنغزاته، يلومني على إنهاء تلك المحادثة التي شعرَ فيها بشعور غريب... تجاه امرأة غريبة للمرة الأولى في حياته! بينما أيّد عقلي اللعين تصرفي، متربعًا في عرشه بأعلى رأسي... ساخرًا من متطلبات فؤادي.

استلقيتُ على السرير ونسيتُ إيصال الشاحن بهاتفي، فقد أتاني ما يشغلني... لأعلم علم اليقين أني لن أنام الليلة بسلام... مستمعًا لتوبيخات ومحاضرات قلبي.

***

«هيا (أبرار)، عليكِ أن تنهضي الآن لتسرعي عملية التعافي بإذن الله»

«اصمت واغرب عن وجهي إن كنت ستنصحني بالمشي»

«لكن هذه أوامر الطبيب وتوجيهاته، هيا هيا قومي الآن»

«(منذر)، توقف عن إزعاجي رجاءً!»

دارت محادثتها بجانبي وأنا بين النوم والوعي، حتى فتحتُ عينيّ لأرى (منذر) زوج أختي واقفًا بجوار سريرها... مادًّا يده لها لتدير رأسَها للجهة الأخرى.

«ها قد استيقظت الأميرة النائمة، أخبرها يا (أديم) أن عليها أن تتحرك»

قال (منذر) مبتسمًا، و(أبرار) تنظر لي وله بحدة.

اعتدلتُ جالسًا لأمطط جسدي وأفرقع أسفل ظهري، مكتفيًا بالابتسام دون أن أنطق بحرف... تلك كانت عادتي عند الاستيقاظ من النوم. لمحتُ شاحن (أسرار) الذي أعاد لي ذكريات الأمس بسرعة البرق، اللعنة! غفوتُ ونسيتُ إرجاع شاحنها!

«لحظة، عن إذنكم»

فصلتُ جوالي والشاحن من مكبسه، لأنتعل حذائي وأهرع للخارج... بشعري الفوضوي الذي خالطه الشيب. يعتقدُ الكثيرون أني أصبغه بالبياض، إلا أنه هبةٌ من الخالق منذ المراهقة... يراهُ الناسُ عيبًا خلقيًّا لكني أراهُ هيبةً ووسامة لسببٍ ما.

دفعتُ باب الغرفة باستعجالٍ وانطلقتُ نحو مكتب الممرضات الذي انتصف الرواق، دون أن أغسل وجهي أو أنظر في المرآة حتى... كل ما يهم الآن هو أن أعيد الشاحن قبل أن تعتقد أني سرقته. كان المستشفى مليئًا بالأطباء والممرضين بتلك الفترة الصباحية، بأحاديثهم المزعجة المملة وإعلانات المستشفى تتخللها بين الفينة والأخرى... صارخين بالأكواد الملونة الطبية الطارئة.

وصلتُ للمكتب ووقفتُ جانبًا لالتقاط أنفاسي، لأرى ممرضتَين مختلفتَين... تنظران لي بعبوسٍ واستثقال.

«عُذرًا، هل لي أن أتحدث مع الممرضة (أسرار)؟»

سألتهما بغباء، واقفًا أمامهما والشاحن بيدي.

نظرتا لبعضهما ثم حولتا أنظارهما لي باستحقار، متصفحتين جسدي من رأسي لأخمص قدمي... وإحداهما تمضغ علكتها بكل برود واستفزاز. بعد لحظاتٍ قاتلة من البرود والاستفزاز والنظرات

الاستحقارية، قالت إحداهما:

«هلا ساعدناك بشيء في نطاق عملنا؟»

أجبتُ وأنا لا أعلم حتى الآن كيف رزقني الله الصبر والحلم عليهما:

«لدي غرضٌ يخص الممرضة (أسرار)، ولن أسلمه إلا لها»

تطفلتْ ممرضةٌ اتكأتْ على الجدار بعيدًا، عاقدةً ذراعيها:

«انتهى دوام (أسرار) لهذا الأسبوع، ولن تعودَ إلا يوم الأحد المقبل»

أعترِفُ أني أُصِبتُ بخيبة أملٍ كبيرةٍ حين قالت لي ذلك، اليوم الخميس... وهي لن تأتي إلا يوم الأحد والطبيب سيوقع لـ(أبرار) بالخروج قبل الأحد على الأرجح. سألتُ الممرضة تلك والخيبةُ باديةٌ على وجهي:

«متى سيكون وقت دوامها؟»

أجابتْ وهي تنظرُ لمجموعة أوراقٍ كانت في يدها:

«من السابعة صباحًا حتى الخامسة مساءً»

شكرتُها مُجدًّا النظر في الممرضتين المتغطرستين، كم أكره هذه

الفئة... ويسمون أنفسهم «ملائكة الرحمة»... هيهات. عدتُ للغرفة وكل ما يشغل تفكيري المرأة ذاتُ الشامة، ماذا لو كان لُطفها معي أمرًا فطريًّا فيها مع كل المرضى؟ لا، مستحيل... رأيتُ في عينيها العسليتين الناعستين شعورًا مختلفًا تجاهي! أيفتعل قلبي كل ذلك ليجعلني ألاحقها كالأحمق، أم أنها فعلًا تبادلني الشعور ذاته؟

لا أعلم، كل ما أعلمه أن لدي سببًا وجيهًا لفتح محادثة أخرى... شاحنها الذي سأعيده لها... وسأحرصُ أشد الحرص على إبقاء المحادثة بيننا لأطول فترة ممكنة. شعورٌ غريبٌ تملكني تجاهها هي بالذات، وهذا لا أشعرُ به عادةً مع أي فتاة... قد أشعرُ بالإعجاب فقط... أما مع صاحبة الشامة تلك فالأمر مختلفٌ تمامًا. نعم كان إعجابًا حتمًا، لكنه مخالطٌ لشعورٍ آخر... شعورٍ يجعلني أود الحديث معها لساعاتٍ حتى نغط في النوم معًا فجأة... لنستيقظ في اليوم التالي ونكمل حديثنا دون ملل. نظرتُ لشاحنها مبتسمًا لا شعوريًّا، أقسِمُ أنه حمل رائحة عطرها الزكية... بمجرد ملامستها لأنفي تذكرتُ ضحكتها بأسنانها المتراصة البيضاء. وأنا بطريقي للغرفة خرجتْ (أبرار) برفقة (منذر)، ممسكًا بيدها وهي تمشي ببطء وهدوء... وبجوارها المغذي الذي اتصل بذراعها.

«(أديم)، يقول الطبيب أنها تحتاج المكوث حتى الأحد للاطمئنان عليها... هل تستطيع مرافقتها؟»

خاطبني (منذر)، بينما اعتمدت (أبرار) على نفسها وتركت يده... لتمشي ساحبةً معها المغذي.

أومأتُ برأسي متبسمًا، أستغفرك يا الله حين فرحتُ بمكوث أختي وقتًا أطول... قائلًا:

«لا مشكلة، أنا في إجازة أصلًا»

كيف سأصبر كل هذا الوقت حتى الأحد؟ أعني يا الله واكفني شر نفسي، لِمَ توقفتُ لأرد عليها بالأمس؟ لِمَ لم أتجاهلها وأستمر بالمشي حتى أشتري شاحنًا جديدًا لو كلف الأمر.

كله يهون أمام شعور الوحدة والتفكير المفرط فيها بعد محادثتنا تلك، ألهمني الصبر والقوة يا مُعين.

ليلةً بعد ليلةٍ

أعـــدُّ الليالـــي ليلةً بعد ليلـةٍ   وقـــد عشتُ دهرًا لا أعدُّ اللياليا

وأخرجُ من بين البيوتِ لعلني   أُحدّثُ عنكِ النفس بالليل خاليا

ثلاثُ ليالٍ أكتوي بنيران ذاتِ الشامة، لا أعلم ما دهاني والله... ما تعلق قلبي فتاةً تراها عيني لأول مرة... كما تعلقَ الحنطية بأسنانها المتراصة.

ثلاثُ ليالٍ مرت ببطءٍ شديد لا يُطاق، الثواني تتحول فيها لدقائق والدقائق لساعاتٍ... بدأتُ أؤمن بحديث من ادعى أن الأوقات السعيدة تنقضي سريعًا... وتلك التعيسة ينقضي الدهر مع طولها.

ثلاثُ ليالٍ لم تكُن لي ولم أمتلكها، لم أشعُر أني عشتُها لنفسي.... استحوذت عليها ملاك الرحمة.

تلك الليالي الثلاث قضيتُها مع المجنون، الذي فقد لياليه كلها لليلاه الوحيدة... قيس بن الملوح. لم يكُن لألفاظه وكلماته أي

معنًى، لم أتذوق المشاعر المبثوثة في قصائده أبدًا... حتى سقطت عيني على (أسرار). عندها فقط شعرتُ بالمعاناة في أشعاره، بالشوق، الحنين، الكراهية، الحب... ولن يفهم أحدٌ شعرَهُ حتى يتذوق لوعة العاشقين.

لن أصف شعوري تجاهها بالحب آنذاك، لم أعلم ما هو بالضبط... كل ما علمتهُ أني أريد الحديث معها فقط... لأتوقف عن التبرير المستمر لعقلي المنطقي وأعطي قلبي كامل الحرية في التصرف. ما أن فتحتُ عيني يومَ الأحد المنشود، حتى انطلقتُ للخارج و(أبرار) لا تزال في نومها العميق... آخذًا شاحنها الذي ما زال يحمل رائحة عطرها.

لم أتهيأ وأتزين وأتجهز لمقابلتها، فبعد كل شيء قد يكون قلبي مخطئًا... وتكون نظراتها التي أرسلتها لي آنذاك لطفًا منها فحسب... تقومُ به مع جميع المراجعين. أعترِفُ تلك المرة أني غسلتُ وجهي ورتبتُ شعري وهذبتُ لحيتي، ورششتُ من عطري الثمين الذي أدخره للمناسبات... حسنًا يبدو أني تزينتُ في نهاية الأمر.

شققتُ طريقي في الرواق وعيناي مثبتتان على مكتب التمريض البعيد، ودقات قلبي تتسارع... ماذا لو لم تكُن موجودة؟ ماذا لو

كانت موجودة أيضًا؟ ماذا بعد؟ عمّ سنتحدث؟ كيف سأطيل المحادثة؟

وصلت، لا وجود لها... جلسَ عدة ممرضين لم أرهم من قبل... ماذا الآن؟ لن أعود، أخذتُ عهدًا على نفسي أني لن أعود خائبًا مهما كلف الأمر.. سيعود الشاحن لصاحبته وسأتحدث معها محادثةً طويلة. اتكأتُ على الحائط ناظرًا يمينًا ويسارًا، مترقّبًا دخولها الرواق في أي لحظةٍ... عجيبٌ ما قد يفعله الإنسان لإرضاء مشاعره... كيف وصل الحال بالضابط (أديم) أن يلاحق فتاةً قابلها في مستشفى؟!

بدأ عقلي يعبثني بالرجولة السامة، تلك التي تمنع الرجال وأصحاب المناصب من ملاحقة مشاعرهم... أنا الضابط (أديم) ألاحقُ فتاةً وأنتظر في رواق المستشفى حتى تظهر... ومن المحتمل أن لا تبادلني الشعور ذاته أصلًا؟! يالسُخف عقلك الذكوري الأحمق، عُد لغرفتك واحتفظ بكرامتك.. وأعطِ الشاحن لإحدى الممرضات لترده لها.

اتجهتُ لمكتب الممرضات بيأس وتثاقل، وضعتُ الشاحن لتداعب أنفي رائحة عطرها للمرة الأخيرة... استدرتُ متوجّهًا

لغرفتي قائلًا لإحدى الممرضات:

«هذا شاحن الممرضة (أسرار)...»

«هل استسلمت عني أيها الغريب؟»

إنعاش، هذه الكلمة الوحيدة التي تصف مشاعري وقتها... إنعاش رئوي وقلبي وحياتي إن صحت التسمية! لهذه اللحظة من حياتي لم ينفد (الدوبامين) الذي غمر دماغي وقتها، التفتُّ سريعًا وانفرجت أساريري... برؤية ابتسامتها وشامة وجنتها اليمنى... بقوامها الطويل الذي وازاني في الطول. رأيتُها حينئذ بشكل أوضح من المرة الأولى، فالإضاءة الآن أقوى وأفضل... لمعتْ تحتها عيناها العسليتان الناعستان. ظللتُ أنظرُ لها بلا تصديق، وابتسامتي الخرقاء تشق وجهي.

«دعنا نتحدث قليلًا على انفراد»

سحبتني بعيدًا عن زميلاتها وعيناي لا تصدقان ما يحدث... ولساني منعقدٌ عاجزٌ عن الكلام بحق. ضاعت كل الأحاديث التي خططتُ لخوضها معها، تبخرت في الهواء حين غصتُ بتفاصيل عينيها الناعستين... وكأنهما تملكتا قدرةً ساحرةً تنسيكَ الكلام!

«أتمنى أن لا أندم على قول هذا، لكن شعورًا غريبًا تملكني الليالي

الثلاث الماضية... منذ التقيتك وشيءٌ ما جذبني نحوك...لا أعلم أهو شعرك الناعم هذا الذي خالطه الشيب!»

قالت ضاحكةً وهي تعقِدُ ذراعيها، متكئةً على الحائط وأنا واقفٌ أمامها.

شكرًا لجرأتك يا فتاة! شكرًا بحجم السماء! لولا جرأتها وتصريحها لكانت الآن صفحةً مطويةً من حياتي المملة، صفحة ألوم نفسي على طيّها وعدم تطويلها وإعطائها حقها. كسرت جملتها تلك الجليد بيننا وشجعتني أن أدلي بكل مشاعري سريعًا، لم أترك فرصةً لأنفاسي حتى... كشخصٍ فقد القدرة على الكلام دهرًا طويلًا ثم عادت له بين ليلةٍ وضحاها.

(سانتوريني)، (اليونان)

رجب، ١٤٢٨ هـ

عُظم الجوى

لا يُطيقها اللسان، ويلفظها بمجرد ملامستها لحُليماتِ الذوق في البداية... وعَقِب الكوبِ الثالث يتحولان لصديقين حميمين. السوداء التي دعاها البعض بالفاتنة، وخِلتهم يبالغون قليلًا في عشقها... حتى ابتلاني الله بإدمانها.. القهوة السوداء. هرعت النادلة التي صرخت ملامحها الأوروبية، ببياضِ بشرتها الفاقع وشقار شعرها وخضرة عينيها وتلاشي حاجبيها... لملءِ كوب قهوتي بعد ارتشافي لآخر قطراته. هي لم تفعل ذلك لأجل عيني البنيتين، أو لعيني (أسرار) العسليتين بجواري... بل بحثًا عن البقشيش السخي.

«أتذكر حين قالت لي أمي بلحظة غضب، ستبقين عانسةً ولن يتزوجك أحد فأخبرتها أن فارس أحلامي سيأتي ونذهب لأوروبا في شهر عسلنا لتقول أنها ستخبر زوجي أني لا أستحق حتى الذهاب لـ(الباحة)»

قالت (أسرار) ضاحكةً، عاقدةً رجليها وهي تنظرُ للبحر أسفلنا... بأمواجه المتلاطمة.

انفجرتُ ضاحكًا من حديثها، قائلًا:

«لهذا السبب قالت لي مازحةً يوم عقد القران أن لا أتكلف في شهر العسل، وأن نكتفي بالذهاب لـ(الباحة)»

استمر الضحك بيننا محدقين بالبحر الذي بدأت الشمس تتلاشى خلفه، معلنةً غروبها لذلك اليوم... اليوم الصحو الذي أرسل لنا رياحه الخفيفة اللطيفة في ذاك الوقت من السنة. حاولت (أسرار) أن نذهب في الشتاء لكنني أعلمُ علم اليقين أني لن أستمتع، مع الثلوج والبرد القارس الذي سيمنعنا من الاستمتاع... ويجبر أجسادنا على الخمول والكسل.

ألقيتُ نظرةً خاطفةً عليها، بقبعتها الصوفية الحمراء التي غطت شعرها ومعطفها الأحمر الطويل الصوفي... وشامةُ خدها اليمنى بارزةٌ كالمعتاد. كم هي عجيبةٌ معادلةُ القدر، كيف أسقطني في طريقها وأسقطها في طريقي... ماذا لو لم أتوقف تلك الليلة للرد على نقاشها؟ ماذا لو أحضرتُ شاحني معي ولم أحتج للخروج من الغرفة تلك الليلة؟ لله حكمةٌ في كل ما يصيب الإنسان من شر ظاهر، ليخبئ وراءه كل الخير.

قرَّبتُ كرسيّها مني وحنت رأسها على كتفي، لأحتويها وكلانا يتأمل الشمسَ الغاربة خلف مياه البحر الأبيض المتوسط... سابحًا بأفكاره العميقة وقد سكن لزوجه آمنًا مطمئنًا. لا يعلم دفء الحضن والسكن للشريك إلا من جربه، حتى تحت البرد القارس سنشعر بالدفء في كنف ذلك الحضن.

«اسمع، أعلم أنك قلت لي أنك لست مستعدًا لموضوع الإنجاب الآن... ولكن حين يرزقنا الله بابنة أفكر أن نسميها (أغصان)... ما رأيك؟»

سألتني وبصرها مسددٌ نحو البحر اللامنتهي، وصوتِ أمواجه المتلاطمة على الصخور.

«هلا تحدثنا عن موضوعٍ مغاير رجاءً؟»

طلبتُ منها بكل هدوء، واضعًا ذراعي حولها. كان حسَّاسًا جدًّا بالنسبة لي، موضوع الإنجاب والأبوة... وكلما فتحته (أسرار) في فترة علاقتنا أو خطوبتنا أو زواجنا الحديث...غيرته مباشرةً أو تملصت منه.

«لم أقُل لك لننُجب طفلًا الآن، فقط أسألك عما ستسمي ابنك أو ابنتك.... سؤالٌ عادي يجيب عليه حتى الأعازب!»

امتعضتْ وهي تُبعِدُ كرسيها عني بعنف، لتُخرِجَ هاتفها وتنشغل به... بينما التزمتُ الصمتَ واستمر بصري بالغوص في أعماق البحر التي بدأت تظلم شيئًا فشيئًا مع غروب الشمس. لم تكُن عادة شجاراتنا الصراخ والغجرية، ألتزِمُ الصمتَ وأكظمُ غيظي وإن استلزم الأمر فأغادر المكان سريعًا قبل أن أقول ما لا أعني... بينما تُشغِلُ هي نفسها بهاتفها أو رسمها أو أي من هواياتها.

تمامًا كما قال عرّاب الغرام، قيس العاشقين... «ولكن حُبَّها وعُظمَ الجوى أعيا الطبيب المداويا»! كان ذاك جزءًا من قصيدته الشهيرة، حين قال واصفًا مشاعره لليلاه العامرية:

وما بيَ إشراكٌ ولكن حبها وعُظمَ الجوى أعيا الطبيب المداويا

تملكتْ (أسرار) سحرًا خاصًا، بشامة خدها وابتسامتها ذات الأسنان المتراصة البيضاء... تُطفئُ نيران الغضب والحنق، وتهدئ من روع المرتعد، وتجعلُ الدنيا زهيدة في نظر الجميع.

(الطائف)، (العقيق)

جمادى الأولى، ١٤٣٣ هـ

نارٌ توقّدت

الشتاء يودعنا برياح ماطرة، وشمسٍ مختبئة خلف السحب الكثيفة... مُفسِحًا الطريق للربيع الذي اعتدنا ربطه بتفتح الأزهار... إلا أننا نعيش في بلادنا المتصحرة فلا نرى زهورًا تتفتح في الربيع ولا أشجارًا تتساقط أوراقها في الخريف. لامست قطرات المطر الخفيفة قدمي الحافيتين، المتمددتين في كرسي الاسترخاء بالفناء الأمامي... ليتبعها ابتلال أوراق الكتاب الذي انغمستُ في قراءته. ما كان كتابًا علميًّا ولا فلسفيًّا، ولا تطوير ذات أو خواطر... بل تصنيفي المفضل الذي أقتل الملل به... الروايات. وليس أي روايات، تلك البوليسية فقط... على الرغم من يقيني أن كل ما يدور بها من أحداث يستحيل أن تطابق الواقع. عجيبٌ كيف يصِفُ الروائي شخصية المحقق في رواياته وكأنه نبي معصومٌ من الخطأ، شديد الذكاء والحنكة ليحل القضية في أقل من أسبوع، متعدد المهارات لدرجة أنه يتقن التنكر والتحدث بعشر لغات والقفز العالي والسرعة في الجري وغيرها... كمحقق لبثَ في عمله مدة تكفي أن يعلم أن ذلك كله ضرورات

سينمائية أو روائية. المهم أنها كانت تقتل الملل وتقضي وقت الفراغ، عذرًا وشكرًا لكُتّاب الجريمة والتصنيف البوليسي.

تسللت رائحة الطين لأنفي، مع اشتداد المطر الذي ابتلت به شجرة العنب، وسيقانه وفروعه المتسلقة لعريشه الخشبي، وأوراقه الخضراء المتدلية. لو أن رائحة الطين هي السبب الوحيد الذي يجعلني أرفض الانتقال من منزل والديّ -رحمهما الله - لمكثتُ لأجلها فقط! سيبقى أفضل مكانٍ للسكن على الرغم من تطور العمران ومنازله الحديثة التصميم، سلِ الأحفاد الذين كبروا عن رائحة الطين في منازل ومزارع أجدادهم... سيتبسمون تلقائيًا وذكرياتهم الجميلة تبرق بأذهانهم.

«شكرًا (مروة)، أراكِ لاحقًا»

قالت (أسرار)، فاتحةً باب المنزل بمفتاحها ليحدث صريره المزعج... ملوحةً بيدها ووجهها مستديرٌ للوراء.

أغلقت الباب وهي تخلعُ حجابها الأبيض، الذي لاءم وجهها الحنطي الطويل... وتناسق مع رداء الممرضات السماوي. شعرها حكى قصة مختلفة عن حسنها، بلونه البني اللامع المبتل ونعومته وقصره الذي لامس أذنيها. عيناها حكتا قصة أخرى عن لطفها

وحدتها في الوقت ذاته، بعسليتهما ونعسهما. ليجمع محياها الحنطي الذي تفرح له الأسارير، وتخضع له أقسى القلوب، وتضيع الأعين في تفاصيله، كل معاني البهاء واللطف والقبول... بالشامة الصغيرة على وجنتها اليمنى.

لن أستشهد بأبيات العشاق الأولين، قيسٍ وجميل وعنترة وغيرهم... في وصف نسائهم اللاتي ضعن منهم... سأقول ما تقوله أختي (أبرار) دومًا: «تلك فتاةٌ ترتاح العينُ عند رؤيتها».

«لِمَ لم تتصلي بي؟»

سألتُها وهي ترتمي على الكرسي الذي بجانبي، راميةً حقيبة كتفها على الأرض... مطلقةً تنهيدة عميقة.

«لا داعي لمجيئك فبيت (مروة) قريبٌ جدًّا منا، أوصلتني مع سائقها»

قالت وعيناها مغمضتان، لتتساقط على وجهها قطرات المطر.

سألتُها بسخرية مريحًا ظهري على الكرسي، وبصري للسماء المرسلة لقطرات الغيث:

«ما أخبار شياطين الرحمة؟»

أجابت بضحك وعيناها لا تزالان مغمضتين:

«هؤلاء الذين تسميهم شياطين الرحمة، هم الذين يتحملون منظر مؤخرتك العارية ليحقنوك بالإبر العلاجية»

ضحكتُ بشدة حتى أن القليل من الدمع سقط من عيني، لتقهقه هي جراء ضحكي المتواصل... لم أكُن لأدعها تفوز بالسباب والاستهزاء وأجبت:

«تخيل أن تدرس خمس سنوات لتكون سكرتيرًا للطبيب، تحقن مؤخرات البشر وتزود أوردتهم بالمغذيات»

صفعت فخذي بعنف وهي تضحك، ليقِفَ كلانا بعد أن اشتد المطر... مهددًا أن يغرقنا ويغرق ثيابنا.

«لن يفهم أمثالك العمل الإنساني الذي نقوم به»

قالت وهي تركض للداخل حاملةً حقيبتها، لتغلق الباب وتتركني في المطر الغزير.

«افتحي الباب رجاءً، ياللصبيانية!»

قلتُ طارقًا الباب بقوة، وقد نال شعري نصيبه من المطر... وملابسي على وشك أن تصبح كالإسفنجة المملوءة بالماء.

قالت ضاحكةً وهي تقف خلف الباب:

«النرَ إن كانت شيطانة الرحمة ستفتح لك الباب وتحميك من المطر»

ضحكتُ هازًا رأسي، لترسل السماء برقًا أومض بالفناء.

«هيا افتحي الباب، لا أريد أن أبدل ملابسي»

«سمِّ المرضين باسمهم الصحيح وسأدخلك»

«حسنًا، ملائكة الرحمة»

رغم أن كبريائي وعنادي عادةً ما يمنعانني من تنفيذ ما تطلبه، لكني لم أستطع التحمل بالخارج. فتحت الباب لأدخل سريعًا، والماء يقطُرُ من ملابسي المبتلة وشعري ولحيتي على بلاط الصالة... وبيدي الرواية البوليسية التي غرقت بالمطر... و(أسرار) تضحك بانتصارها علي.

«لا تفرحي بانتصارك كثيرًا، بيننا الأيام يا شيطان الرحمة»

قلتُ متجهًا للمطبخ الذي كان على ميمنة الصالة، وعلى ميسرتها قبعت غرفة المعيشة بتلفازها الكبير والأرائك حوله.

لحقتني للمطبخ دون كلمة، فعقولنا كانت مبرمجةً بذلك

الوقت قبيل المغرب لتحضير الشاي وتجهيز المأكولات الخفيفة... والاسترخاء لمشاهدة مسلسل أو فلم. أخرجت رقائق البطاطا من مكانها في المطبخ بينما وقفتُ أنا على الموقد، واضعًا إبريق الشاي الذي اسود قاعه بالكامل... جراء مواجهاته العديدة مع نيران المواقد... للأمانة تلك الأباريق أعطت نكهةً خاصة للشاي المحضر داخلها.

«(أديم)، هل لي أن أتحدث معك في موضوع؟»

قالت (أسرار) لتتغير ملامحها للجدية، رافعةً بصرها لي بشيء من الحزن.

قطبتُ حاجبيّ واضعًا علبة الشاي التي حملتها جانبًا، مقتربًا منها وأنا أقول:

«بالتأكيد، ما الأمر؟»

طلبت بعينين مترجيتين:

«لكن أرجوك أرجوك اسمعني حتى أنهي كلامي»

أومأتُ وكلي آذانٌ صاغية، فهي بين كل من أعرفهم حين تتغير ملامحها للجدية... يعني أن لديها أمرًا جللًا.

«ألا تعتقد أن الوقت قد حان؟ (أديم)، مضت خمسُ سنواتٍ على زواجنا وحياتنا مستقرة للغاية ولله الحمد... أليس هذا هو الوقت المناسب لإضافة فردٍ جديدٍ للعائلة؟ لترى ابنتنا (أغصان) النور أو ابننا...»

قاطعتُها عائدًا للموقد لأضع أوراق الشاي في الإبريق قائلًا:

«سبق وتناقشنا في هذا الموضوع من قبل، وأخبرتك مرارًا وتكرارًا أن لا تفتحيه مجددًا... أنا لستُ مستعدًّا البتة»

«بالله عليك يا (أديم)، أعطِني جوابًا منطقيًّا حتى أقتنع... ما الذي يمنعنا من الإنجاب؟»

أعادت الكرة وهي تحدثني بعقلانية، مقتربةً مني وبيدها كيس البطاطا.

«أنا لستُ مستعدًّا نفسيًّا لأن أكون أبًا، مفهوم؟»

ارتفع صوتي دون إرادةٍ مني، فلطالما ضغط هذا الموضوع على وترٍ حساس عندي... وليس هذا تبريرًا لرفع صوتي عليها. قرارٌ صعبٌ اتخاذه أن تكون أبًا، ولا يدرك عواقبه الكثيرون... لينجبوا أطفالًا لا يقدرون على تحملهم. أن تصبح أبًا يعني أن وقتك الذي كنت تقضيه في القراءة واللعب واللهو، سيصبح وقت طفلك

الخاص باللعب واللهو. أن تصبح أبًا يعني أن تنسى النوم المريح الذي تحتاجه بعد عودتك من ساعات العمل المرهقة، ستقضيه مع طفلك المتلهف لرؤيتك. باختصار... أن تصبح أبًا يعني أن حياتك لن تعود ملكًا لك، ستصبح ملكًا لطفلك. وأنا لستُ مستعدًا لذلك كله، الموضوع ليس الاستعداد المادي فقط... بل الاستعداد النفسي أيضًا وهو الأهم. أذلك نضجٌ مني أم أنانية؟ لا أعلم. ولن أكون أحد أولئك الآباء الذين يرمون بأعباء التربية على الأم، ولا يشاركون سوى بالمادة والقليل من الوقت... التربية فرضٌ واجبٌ على كلا الأبوين.

تسمرتْ حين صرختُ عليها، وعيناها العسليتان مثبتتان على عيني. استمرت بالتحديق حتى حمحمت حلقها وعيناها تمسكان الدموع، قائلةً بنبرةٍ خفيفة:

«حسنًا، إن كان هذا ما تريده حقًّا... فأعتقد أن كلًّا منا يريد شيئًا مختلفًا عن الآخر»

«بربك، أنتِ لا تعنين هذا حقًّا... أرجوكِ لنغلق الموضوع الآن ولننعم بليلتنا المعتادة»

قلتُ ملتفتًا لأكمل تحضير الشاي، راجيًا الله أن تتوقف عن

الحديث حتى لا يقول أي منا ما لا يعنيه... في لحظة غضبٍ عارمة.

أمسكتْ ذراعي الباردة التي نالت نصيبها من الهواء والمطر، بيديها الدفيئتين الصغيرتين... من المستحيل أن أنسى مسكتها تلك ما حييت. سألت بنبرتها الهادئة:

«(أديم)، هل ستتغير وجهة نظرك هذه أبدًا؟»

التفتُّ عليها آخذًا نفسًا عميقًا، قائلًا وأنا أبعد يدها عن ذراعي بعنف:

«لا أعلم يا (أسرار)، لا أعلم! كل ما أعرفه أني لستُ مستعدًّا الآن، وقد لا أكون مستعدًّا السنة القادمة ولا التي بعدها»

غادرتُ المطبخ قبل أن أقول ما أندم عليه لاحقًا، احتجتُ لتفريغ غضبي بأي طريقة... أي طريقة!

«لا تتهرب من الجواب يا (أديم) كالعادة!»

صرخت وهي ترمي بكيس البطاطا على الأرض.

تمنيتُ لو كظمت غيظي تلك اللحظة بالذات، تمنيتُ أن يسلب الله مني القدرة على الكلام آنذاك... تطايرت الكلمات من فمي كحمم قذفها أحد البراكين الثائرة:

«أتعلمين؟ قراري لن يتغير البتة، وإن كنتِ مهووسة بالأطفال لهذه الدرجة فابحثي عمن سيعطيك إياهم غيري!»

كمجنونٍ لا يملك ذرة عقل، كسكران لا يستطيع السيطرة على عقله... كمنومٍ مغناطيسيًّا لا يتحكم بقراراته... أقسم أني لا أتذكر قول تلك الكلمات بإرادتي! لكن ذلك هو عينه الذي حذرنا منه سيد الخلق عليه الصلاة والسلام، أن لا نتمالك غضبنا ونعطي لساننا وتصرفنا الحرية وقته... ليتربع الشيطان على عرش الانتصار بعد أن يدمر ما يريده من حياة الإنسان الغاضب.

تناولتُ معطفي البني من غرفة المعيشة، واتجهتُ لباب الخروج... دون علمٍ مني أنه سيكون بوابة خروجي من العلاقة. سقطت عيني عليها وهي تراقبني بصمت، متصنّمةً مكانها في المطبخ. الدموع تتساقط من عينيها لتبلل شامة وجنتها، وشفتاها ثابتتان لا تتحركان... هي لم تبكِ أبدًا... فقط أفلتت عيونها الدموع الحبيسة المثقلة. لم أكن أعلم أنها المرة الأخيرة التي تتمتع فيها عيني بالنظر لها، لكل تفاصيلها الجامعة لأبلغ معاني الحسن. لم أكُن لأضع الجمال في صورة نمطية، كما يضع الغرب الشقار والعيون الزرقاء والبياض الفاقع نمطًا للجمال.. أو العرب مع اسوداد الشعر

وطوله والحاجبين المرسومين وغيرها. لكنني أقسم أن كل شيءٍ فيها رأيته كاملًا غايةً في الحسن، والكمال للقدير. فاقت عيناها العسل في عسليتهما، غلبَ شعرُها الناعم القصير البُن في بنيته... ويختم الحسن مسكًا ابتسامةُ ثغرها بأسنانها البيضاء المتراصة التي لم تسمح بمرور الهواء خلالها.

غادرتُ المنزل والسماء ترسل أمطارها الغزيرة، متبوعةً ببرقها ورعدها المتواصلين... والشمسُ تأذنُ بالمغيب. أوراقُ العنب وأغصانه تتمايل بشدة وتصطدم بخشب العريش جراء الرياح، صارخةً لتحذرني من عواقب ما أقوم به... لكن عقلي كان تحت تأثير الحنق والغضب. نال باب السيارة نصيبه من سخطي بعد أن أغلقته بكل ما أوتيت من قوة، وبمجرد اشتغال المحرك ضغطت قدمي على دواسة الوقود، ويداي مثبتتان على المقود... قائدًا حيثُ يأخذني الطريق بعيدًا عن ضجيج البشر.

***

تأملتُ باقة الورد الحمراء بين يدي، هل كانت لتجبر الكسور التي خلفتها عبارتي تلك؟ ما أسخف عقولنا نحن الرجال، نظن أن الورود كفيلةٌ بأن تُنسِيَ النساء ما سببناه لهن من آلام... هن فقط يغفرن لنا أخطاءنا مرارًا وتكرارًا... لكنهن لا ينسين أبدًا. خطت قدمي على الإسفلت المتشرب بمياه الأمطار، مغادرًا سيارتي وقد تحجرت عظامي جراء الجلوس الطويل، والقيادة في مقاعدها الغير مريحة على الإطلاق. أدخلتُ المفتاح في مزلاج الباب وقلبي ينبض بعنف، أقسمُ أني أسمع دقاته في رأسي... كانت تلك أطول مدة غبتُها عن المنزل بعد عراك.

هدوءٌ مُطبِق أحاط بمنزلنا، مع هدوء الرياح وكف الغيوم عن إنزال القَطْر. خلعتُ معطفي وقدماي تحثان الخُطا في الفناء، حتى وصلتُ لباب الصالة لأتوقف عنده لحظات... آخِذًا نفَسًا عميقًا. ألقيتُ معطفي على علاقة الملابس بجوار الباب، لم أكترث لسقوطه بعدها وتقدمتُ بباقة الورد... والخجلُ يعلو محياي من اعتذاري الهزيل بباقةٍ كتلك. صعدتُ الدرج بلهفة وشوق، متمسِّكًا بالباقة وكأن حياتي تعتمد عليها.

أعرِفُ أين تختبئ زوجتي حين تضيقُ الدنيا بها، غرفتها

المخصصة للرسم بالدور العلوي... تُقفِلُ بابها وتخلو بلوحاتها وألوانها وفُرشها. لا أفقه في الرسم والفن شيئًا، على عكس (أسرار) التي كانت مهووسةً به منذ الصغر... ويستحيل أن تمر ليلة في حياتها دون أن تدخل غرفة رسمها.

نغزني قلبي حين تراءى لي بابُ الغرفة مفتوحًا ولا يظهر أحدٌ داخلها، هرعتُ نحو الغرفة لأرى لوحاتها المتناثرة... دون أي أثرٍ لصاحبتها.

هرعتُ لغرفة النوم ودقات قلبي تتسارع، وقلبي يكذب عقلي الذي غذاه بأسوأ الاحتمالات. خفقَ خفقةً لن أنسى شعورها ما حييت، حين أبصرتُ سريرنا قابعًا وحده.

ركضتُ حول المنزل بأكمله كالمجنون، باحثًا عنها مرارًا وتكرارًا... ويدي لا تزال ممسكةً باقة الورد بإحكام وشدة.

«أيها الغبي، لقد دخلت كل غرف المنزل ولم تجدها... زوجتك قد رحلت»

قال عقلي بكل حدة وعنف.

«ابحث مرة أخرى يا (أديم)، لعلك لم تبحث جيدًا في المرات الماضية»

قال قلبي بكل أملٍ ورِقّة، وكأن زوجتي هاتفٌ محمولٌ أضعتُهُ أو سلسلة مفاتيح!

رن هاتفي معلنًا عن رسالة نصية قد تلقاها، أخرجتُهُ وقرأتُ فحواها... لأُعيدَ قراءتها مرارًا وتكرارًا وكأن الأحرف العربية لم يعُد لها معنًى. أقسمُ أن تلك أطول مدة يبقى بها بصري معلّقًا على جوالي، دون أن ترمش عيناي للحظة... أتأمل رسالتها على خلفية جوالي التي كانت صورةً لنا في مدينة (سانتوريني) اليونانية.

استمر الصراع بين عقلي وقلبي مجددًا، ليحتج قلبي بصورتنا في خلفية الجوال... ويحتج عقلي بالرسالة التي أتتني منها. يا الله، كم كنا سعداء في تلك الصورة! وقفنا بجوار بعضنا وخلفنا المباني البيضاء المقببة باللون الأزرق، كانت إحدى تلك اللحظات السعيدة التي تتعب فيها من كثرة الضحك... وتتبسم لا إراديًا بمجرد النظر لها. وقفتُ بمعطفي الفرائي الأبيض وبنطال الجينز، مغطيًا رأسي بقلنسوة معطفي... ضاحكًا ناظرًا لها وقد لخصت عيناي البنيتان الواسعتان ما أكنه لها من عواطف.

كان ظهرها منحنيًا بجواري من قوة الضحك، لتظهر أسنانها البيضاء المتراصة... عيناها مغمضتان وشامةُ خدها الأيمن ظاهرةٌ

بوضوح كما هو الحال في كل صورها... رغم حنطية بشرتها. بقبعتها الصوفية الحمراء التي أخفت شعرها البني، ومعطفها الأحمر القاتم الذي وصل لكعب قدميها. كانت توازيني طولًا ولم يَعِبها ذلك قط، في الحقيقة لم يكُن ليعيبها شيء... لو اجتمعت كل العيوب فيها لتحولت لأيقونة جمال.

حان دور حجة عقلي الدامغة، رسالتها التي لم أصدق فحواها أبدًا... حاول قلبي تبرير رسالتها بشتى الطرق لكن هيهات...

«لستُ بحاجة رجلٍ لا يملك الجرأة والقوة ليكون أبًا لأطفالي، كل منا يريد شيئًا مختلفًا عن الآخر... إن كان قرارك النهائي عدم الرغبة بالإنجاب فهذا فراق بيني وبينك»

لم تكُن القسوة في كلمات الرسالة فقط، بل كونها نصية أولًا وليست على (الواتساب) مما يعني رسميتها... وقصيرة الكلمات وجادة وغير قابلةٍ للنقاش أو التفسير بأي شكل جيد ثانيًا. خياران أحلاهما مُر، إما أن أختار الأبوة رغم عدم رغبتي واستعدادي لها أبدًا، أو الانفصال عن الفتاة التي وجدتُ فيها كل شيء... ولا أقول هذا الكلام كبقية من يقوله ولا يطيق النظر لزوجته في البيت.

(أسرار) كانت الأم والرفيق والأخ قبل العشيق، وكم يؤلمني استخدام الفعل الماضي (كان) عند ذكرها... لِمَ يا الله؟

هل كنتُ لأتراجع عن موقفي تجاه الإنجاب؟ كدتُ أتراجع والله، كنت على شفا حفرةٍ من الإذعان وإعطائها ما أرادت... فقط لتعود. إلا أن الفكرة كانت مرعبةً جدًّا بالنسبة لي، أن أكون أبًا... ولم أكُن لأوافق حتى لو تعين علي خسارة أقرب الناس لي. ليسَ كبرياءً من الرجل الذي بداخلي، لم أكُن لأعطيهِ أكبر من حجمه وأخسرَ علاقتي بسببه، بل لأن موضوع الإنجاب شائكٌ جدًّا بالنسبة لي... من المستحيل أن يتغير موقفي تجاهه فقط لأجل عودة فتاة أحبها... لأُنجِبَ إنسانًا قد يعيش تعيسًا مدة تسعين سنة... لأنه لم يحظَ بالطفولة الطبيعية الصحية.

(الطائف)، (العقيق)

رجب، ١٤٣٣ هـ

ويحكِ أسعديني

انتزعها من مكانها وكأنه ينتزع قطعةً من قلبي، ليضعها في الكرتون الكبير وينتقل للأخرى بلا رحمة... أمام عيني المثيرتين للشفقة... متكئًا على حائط غرفة رسم (أسرار). لم تعُد غرفة رسمها بعد الآن، هي الآن غرفة بلا روح... وإخوتها يجمعون لوحاتها الفنية وأدوات رسمها... آخر أغراضها في بيتنا... لا لا... في بيتي. لم تكُن عيني فقط التي أثارت شفقة الناظرين، بل مظهري بأكمله... من رأسي لأخمص قدمي. شعري الفوضوي غرقَ بالزيت جراء فقدانه للاغتسال والماء، وكأن شيبه والبياض المخالط له قد ظهر بعد رحيلها. جسدي يتوق يوميًا لقطرة ماءٍ تلامسه، يُقاتِلُ يوميًا ليحركني نحو الحمام... مُطلِقًا روائحه الكريهة من كل بقعة.

كل جزءٍ من جسدي كان يناجيني ويتضرع لي، يطلبُ مني النهوض والسعي... بلحيتي وشاربي اللذين طالا كثيرًا حتى أصبحتْ مثل رجال الكهوف.. الفرقُ الوحيد أني في بيتي بدلًا من كهف. حملَ (جميل) و(محمد) - إخوة (أسرار) - الكراتين

من الغرفة، لتترقبها عيناي وهي تغادرُ المنزل... آخر ما تبقى من (أسرار).

«آسف يا رجل، حاولنا إقناعها بالرجوع بكل الطرق لكننا فشلنا»

قال أخوها (جميل)، وعيناهُ تتأملانني بإشفاق... تتأملان أطلال زوج أخته السابق.

أومأتُ برأسي وتوجهتُ لغرفة المعيشة بالأسفل، لم يعُد اسمها غرفة معيشة دون صاحبتها... صاحبتها التي اختارت أثاثها وأثاث المنزل برمته. ارتميتُ على الأريكة التي لم تعُد تطيقني، من كثرة الجلوس عليها وعدم مفارقتها... برائحتي الكريهة التي انتقلت لها. رفعتُ صوت التلفاز واختبأ جسدي تحت بطانيتي، مكملًا قارورة المشروب الغازي التي فقدت برودتها... ناظرًا للتلفاز بعيني اللتين اجتمعت تحتهما الهالات السوداء.

لم أشتهِ المشروب الغازي ولم أرغب بمشاهدة التلفاز، لم أهتم بما يعرض عليه أصلًا... إنما كان هذا هو الروتين المميت الذي اعتاده جسدي. سمعتُ صوت إغلاق الباب الذي أعلن رحيل أخويها، وأدركتُ وقتها أن تلك آخر مرة أرى فيها شيئًا يخصها... وعلى

الرغم من أني أملك عودتها بقرارٍ واحد... إلا أن هذا القرار صعبٌ جدًّا علي. هُنا تكمُن مرارة الفراق ولوعته، أنك تستطيع العودة ولا تستطيع في الوقت ذاته... فعودتك مشروطةٌ بمخالفة مبدأ اتبعته طيلة حياتك. أنتَ معذّبٌ في كلتا الحالتين، لو فارقتها أو انصعتَ لطلباتها... كلانا أراد شيئًا مختلفًا عن الآخر. شرحتها (نوال) في إحدى أغانيها حين قالت: «بس بلاي وعلتي... إني من دونك أموت... وإني معاك ماني حي!»

قاطعَ أفكاري صوتُ المفتاح الذي أُدخِلَ بمزلاج الباب الخارجي، استطعتُ سماعه رغم علو صوت التلفاز... رفعتُ رأسي لأنظر لمن دخل من النافذة... علها ترجع بعد كل شيء. حمقى هم الرجال حين يظنون أن المرأة تعود بعد رحيلها، حمقى حين يظنون أن قلبها سيلين لمبادئهم هم... دون تفكيرٍ منهم بالتنازل لها ولو لمرة. يا الله، كيف أصبحتُ من أولئك الرجال الخاسرين البائسين، الذين يغردون بالصور النمطية عن كبرياء الرجل... بعد أن كنتُ أمقتهم وأنتقد حديثهم.

ظهر الداخل أخيرًا والذي لم يكن سوى أختي (أبرار)، بعباءتها البيضاء وشعرها الأسود الطويل المنسدل على كتفيها... وأنفها

الطويل الحاد الذي ورثه كلانا من أبينا رحمه الله. لم تكُن وحدها، بل أمسكت بيدها طفلتها (نسمة) ذات الأربع سنوات... بفستانها اللطيف الأحمر وشعرها الناعم الأسود القصير الذي تلاعبت به الرياح. لا أريدها أن تراني بهذا المظهر. لم أملك الوقت للاغتسال أو تغيير ملابسي، فاستسلمتُ تحت بطانيتي برائحتي النتنة. تجاوزتا الفناء وخلعت (أبرار) كعبها على الباب، بينما جلست (نسمة) لتخلع جزمتها... فاقت تلك المخلوقة لطافة كل الأطفال.

«السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين!»

صاحت (أبرار) ساخرةً، متفحصةً أخاها الأصغر... هازةً رأسها لتعبر عن امتعاضها.

لم أُعِر سخريتها أي اهتمامٍ فقد ركضت نحوي ابنتها بصراخٍ وبهجة، بابتسامة أمها ذاتها بالغمازات.

«أهلًا أهلًا بالحبيبة ابنة الحبيبة»

انفرجت أساريري بمجرد رؤيتها، حملتُها واحتضنتُها بقوة... لأغرقها بالقبل.

«أووووه، ما هذه الرائحة النتنة يا رجل؟!»

قالت (أبرار) مقطبةً حاجبيها مغطيةً أنفها، متجهةً نحو النافذة لتفتحها.

لم يكُن رأيها وحدها فقد قطبت ابنتها حاجبيها أيضًا، واضعةً يدها على أنفها ليصبح شكلها مضحكًا للغاية.

«ما هذه الرائحة يا خالي؟»

قالت مجبرةً نفسها على القفز من حجري لتقفَ بعيدًا، ويدها لا تزال تغطي أنفها بينما انفجرتُ ضاحكًا... لأقول لها:

«رائحة الفراق!»

ازداد تقطيبها لحاجبيها قائلةً:

«ما هو الفراق؟»

قالت (أبرار) وهي تجلسُ على الأريكة بتقزز:

«هيا قُم واغتسل سريعًا، سنخرج»

احتججتُ عائدًا لبطانيتي:

«لا أرغب في الذهاب لأي مكان»

رمقتني بنظرتها القاتلة التي احتفظت برعبها وتأثيرها على مر السنين منذ كنا صغيرين، حتى أن (نسمة) ارتعبت منها... لتقول:

«لن نتحرك حتى تذهب معنا، لم تغادر المنزل لشهرين! ولا تزال تستهلك إجازات عملك وكأنك في رحلةٍ حول العالم بينما أنت في منزلك كالبائس تبكي على فتاةٍ لا تريدك، هيا اغتسل وسنخرج بسيارتك أو على الأقدام لأي مكان وتتحدث لي عما أردت»

أجبتُ بغضب:

«هي تريدني!»

هزت رأسها لتزيد من حدة كلامها:

«يالسخف عقلك، اذهب الآن لتغتسل وسنكمل حديثنا بالخارج»

لم تترك لي عيناها المصرتان المرعبتان خيارًا سوى الذهاب للحمام والاغتسال، وأنا عالمٌ تمام العلم أن أحاديثنا لن تُعيد (أسرار)... أو تشعرني بالراحة والسعادة وتقبل فكرة رحيلها حتى. كانت محقةً في حدتها فقد استنفدت جميع الطرق معي، ولم يبقَ سوى الحب العنيف كما يسمونه. اغتسلتُ سريعًا لأنظر بوجهي المثير للشفقة بالمرآة، بعيني المتعبتين والهالات السوداء التي اجتمعت تحتها... وشعر رأسي ولحيتي الطويل الذي لم أمسه من شهرين.

«معقولٌ أن رحيلَ فتاة يفعل هذا بك؟»

همستُ لوجهي البائس بالمرآة، أو بالأصح همس عقلي... لتغوص يدي في أعماق لحيتي الطويلة المبتلة... أعتقد أن القشرة والقمل قد عششوا بها وبنوا قراهم. أجابه قلبي بخلدي معترضًا بمشاعره المرهفة:

«ليست أي فتاة، تلك كانت زوجتي التي تشاركني حياتي يا رجل!»

استمرت عيناي بتأمل وجهي التعيس، ويداي تتحسان ما أكل الدهر منه... كأنه قرنٌ مضى بلياليه الطوال العنيفة! فقدتُ الإحساس بالوقت لعدة دقائق، لأعود للواقع بصوتِ (أبرار) الذي صرخ لنهر (نسمة) عن فعل شيء ما. ارتديتُ ثوبي ورششتُ من عطري الذي لم يزدني إلا تذكيرًا بزوجتي، كل شيءٍ حولي صرخ بصوتٍ عالٍ: «(أسرار)». خرجتُ لأركب سيارتي وقد سبقتني لها (أبرار) مع ابنتها، لتلامس أنفي رائحة سيارتي القذرة. قيدتِ ابنتها بحزام الأمان بالخلف، وهي تقاومُ أمها طالبةً الجلوس بالأمام معي.

«الشرطي سيوبخك لو رآكِ بالأمام»

قلتُ لها ملتفتًا للوراء متبسّمًا، لترفع عينيها وتعقد ذراعيها... عابسةً بوجهها المستدير الذي شابه وجه أمها.

قالت (أبرار) وهي تركب بالأمام:

«اذهب لبيتنا ثم اتجه لأقرب مقهى»

لم أكترث لمجادلتها، كمن سلم أمره للجميع ليفعلوا ما شاؤوا به... متمسكًا بالمقود متأملًا الشارع الذي لم أره منذ مدة. لحظات وتوقفتُ أمام عمارتها التي لم تبعُد عن منزلي سوى بضع دقائق، حتى أنها أتت مشيًا على الأقدام فالمسافة قريبةٌ جدًا. كان زوجها (منذر) واقفًا عند الباب، سلمتُ عليه وأخذ (نسمة) من الخلف وهي تصرخ قائلةً:

«لا لا، أريد الذهاب معهما!»

كطفلةٍ في عمرها، بدأت بالبكاء وأرجحة قدميها ومحاولة إنزال نفسها للأرض.

أشارت لي (أبرار) بالتحرك وأطعتُها، سامعًا (منذر) يقول لابنته:

«هيا هيا، سنذهب لنشتري الآيسكريم»

سرعان ما قدتُ بعيدًا عن (نسمة)، فليس من الجيد أن تستمع حديثنا في عمرها ذاك. تنهدتُ بعمق، عالمًا تمامًا أن أختي الكبرى ستحد حديثها معي أكثر.

«سأبدأ حديثي معك في المقهى حتى لا يقاطع أفكارنا أي شيء، وتحمَّل ثقله عليك فلستَ طفلًا صغيرًا»

لم أجادلها، التزمتُ الصمت مومئًا برأسي... كانت محقةً فهي تخاطِبُ رجلًا في الثلاثين من عمره... ولم يعُد ذاك المراهق العشريني الذي يداريه الجميع في تصرفاتٍ كهذه. أوقفتُ السيارة أمام أحد المقاهي ومشينا نحوه تحت شمس (الطائف) الربيعية المعتدلة، مع الرياح التي لطَّفت الطقسَ كثيرًا... والغيوم المغطية للشمس بين الفينة والأخرى. جلستُ عند الطاولة بزاوية المقهى، لأخلع حذائي وأتربع على أريكتها تاركًا أمر الطلب لأختي الكبرى. كل الأمر أني لم أهتم، حقًا لم أهتم بأي شيء يدور حولي... فقدتُ الشغف في كل شيء وجميع الأشياء أصبحت بالأبيض والأسود... فقدتْ طعمها ولونها ورائحتها.

«حسنًا، اسمع فكرتي ولا تقاطعني حتى أنتهي»

قالت (أبرار) جالسةً أمامي، جامعةً شعرها الأسود الطويل لتربطه على هيئة كعكة... استعدادًا لحديثها الذي خفقَ قلبي خوفًا منه... فأنا أعلم جيدًا أن حديثها سيكون الحقيقة المريرة التي أرفض تقبُّلَها.

«أرى أن تغادر (الطائف) في أقرب فرصةٍ وأسرع وقت. عليكَ أن تنتقل للرياض أو المنطقة الشرقية أو دولةٍ مجاورةٍ حتى لو تطلب الأمر...»

كدتُ أقاطعها إلا أنها أوقفت لساني عن الكلام، حين رفعت سبابتها وأغلقت عينيها بعصبية... لتأخذ بضع ثوانٍ لاستعادة هدوئها.

«(أديم)، لقد استنفدتَ جميع الحلول! بربك، لقد فقدتَ الشغف في كل شيء حتى الاغتسال! لم تعُد تستطيع القيام بمقومات الحياة الأساسية، من عملٍ وأكلٍ وشربٍ وذهابٍ للحمام حتى... أسألك بالله متى كانت آخر مرةٍ أكلتَ بها وجبةً كبقية البشر؟ ولا أتحدث عن المرطبات والمشروبات الغازية ورقائق البطاطا»

لم أجِبها ولم أستطع، فقد كان الحق معها...واكتفيتُ بالنظر لها ببؤس.

«متى كانت آخر مرةٍ خرجتَ فيها للتنزه أو شربِ القهوة حتى بالخارج؟»

اكتفيتُ بالصمتِ مجددًا، لا أتذكر للأمانة أني خرجتُ للتنزه أصلًا بعد أن غادرت (أسرار) منزلنا... عفوًا... منزلي.

«ما الذي تعتقد حدوثه عند انتهاء رصيد إجازاتك أيها المحقق الفهيم؟»

سألتني بحدة، مقتربةً مني وعيناها البنيتان تحكيان خيبة أملها.

«أعودُ للعمل!»

أجبتُها باحتجاج وثقة، مشيحًا بالنظر بعيدًا عنها. صرخت عابسةً وعيناها تشتعلان غضبًا:

«كاذب!»

ترددت صرختُها بأرجاء المقهى لينظُرَ لنا روادُهُ باستغراب، لولا شبهُنا ببعضنا لاعتقدوا أننا زوجٌ في خضم عراكٍ عنيف... أخذتْ نفسًا عميقًا قبل أن تقول بهدوء:

«كذبتَ وربِّ الكعبة! ستتغيبُ عن العمل حتى يتم فصلك يا حضرة الضابط!»

لم أرَ (أبرار) أكثرَ اشتعالًا من يومنا ذاك بالمقهى، كادت تخنقني بعينيها تينك... ولم ألمُها يومًا على عنفها في الحديث... بل أشكرُها عليه فلولاه لبقيتُ الآن رجلًا عازبًا بائسًا وعاطلًا فوق كل ذلك.

«اسمعني يا أخي، الانفصال صعبٌ وأنا أعلمُ ذلك... صحيحٌ أني لم أجربهُ مثلك لكنك أخي وأعرفك جيدًا وأكره أن أراك هكذا! أهذا أخي الذي أفخرُ به عند كل معارفي، لنُبل ما يقوم به ولعلو رتبته ودهائه الشديد... السلك الأمني يحتاجك يا رجل... يحتاجُ عودة الضابط (أديم)! أنا أعرفك جيدًا وأعرفُ كيف ستتخطى أزمتك هذه، عليك أن تبتعد عن كل ما يذكرك بها... وكل ما يذكرك بها موجودٌ في (الطائف). اطلب الانتقال لأي مدينةٍ أخرى واعرض منزلك هذا للبيع، واسكن معنا حتى تأتيك الموافقة على النقل... وصدقني ستشعر بالفرق. في مرحلة الانفصال بالذات يحتاجُ الإنسان أن يبتعد عن كل ما يذكره بشريكه، وعليه أن يبذل وسعه في نسيانه»

بدأ حديثُها يدور في عقلي بجدية، فحينها فقط شعرتُ أن ذاك هو الحل الذي لم أجربه... كانت (الطائف) هي (أسرار)... فكل شيءٍ فيها يذكرني بها وبلحظاتي معها.

«لكن عليّ أن أبدأ حياةً جديدةً عند الانتقال لمدينةٍ أخرى، ماذا عن أصدقائي ومعارفي وحياتي التي قضيتُ معظمها هنا؟»

سألتُها وأنا أعرف إجابتها، لم يكُن سؤالًا أكثر مما كان تفكيرًا بصوتٍ عالٍ.

«وهل قلتُ لك أن الأمر سيكون سهلًا؟»

أجابت مسندةً ظهرها على كرسيها، رافعةً حاجبَيها وكتفَيها.

رن الجرس الخاص بطلبنا فهرعتْ ملبيةً للنداء، لتتركني وحيدًا مع أفكاري المتضاربة. هل الانتقال هو الحل النهائي الفعال؟ لربما كان هو، فسينقطع عندها أملي في عودة (أسرار) التي لن تعود... وأخرجُ من دوامة الذكريات التي قتلتني في المنزل!

هذه العلاقة لم تعُد قابلةً للإصلاح والعلاج، حاولتُ إقناعها بالرجوع لنناقش الأمر، لكنها أصرت على موضوع الإنجاب إصرارًا رهيبًا. استنفدتُ جميع الطرق، أختي (أبرار)، أمها، أبوها، إخوتها (محمد) و(جميل) و(عبدالله)، وكل من حولنا، لكن أحدنا لم يتنازل عن قراره. كانت تلك اللحظة في المقهى عندما علمتُ أنها النهاية لعلاقتنا، محادثة أختي كانت بمثابة إنعاشٍ لحياتي بالكامل...

كصفعةٍ لتفيقني من الجنون الذي كدتُ أعيشه طيلة حياتي لولا أختي الكبرى.

علمتُ الآن سر تعلق الشاعرة (الخنساء) بأخيها (صخر) وتعلقه بها، علمتُ سر حبهما الشديد لبعضهما... عرفتُ سبب حزنها الشديد على موته أكثرَ حتى من حزنها على أبنائها حين استشهدوا في معركة (اليرموك)... حتى قالت في أحد أشعارها:

ألا يا عينُ ويحكِ أسعديني لريبِ الدهر والزمنِ العضوضِ

ولا تُبقي دموعًا بعد صخرٍ فقد كُلِّفتِ دهـركِ أن تفيضي

توبخ عينها لتسعدها، قائلةً لها أن دموعها قد كُلِّفَت أن تفيضَ على أخيها فقط!

(الطائف)

ربيع الأول، ١٤٣٦ هـ

على خط النار

كل أجزاء جسدي ترتعش، حتى الأعضاء الداخلية شعرت برعشتها وقلقها... الآن... والآن فقط اتضح كل شيء! مرت الذكريات بذهني كالصاعقة، لتحرق خلاياه المتبقية باللحظات المريرة لعلاقتنا... معظم شجاراتنا كانت بسبب موضوع الإنجاب. ليتني أعطيتُها ما أرادت، ليتني أنجبتُ منها سبعين طفلًا... عوضًا عن الأطفال الذين سلبت أرواحهم بلا رحمة!

أكانت تلك الفتاة ذات الشامة التي أعرفها؟! مستحيل، هل كنتُ متزوجًا بمختلة اجتماعية؟! كيف بحق الله؟! (أسرار) التي أعرفها لم تملك الشجاعة لذبح دجاجةٍ حتى، والآن يداها متلطختان بدماء ثمانية أطفال... وانتشال قلوبهم من أجسادهم والافتخار بعملها بكل وحشية!

تناثرت الأفكار بعقلي المضطرب، بين تصديقٍ وتكذيب... فالمجرم المنشود ليسَ سوى ذاتِ الشامة اللطيفة التي يئن قلبي لفراقها كل يوم!

«(أديم) (أديم)، إلى أين أنت ذاهب؟»

قاطعَ (رعد) حبل أفكاري بصراخه، حين رآني أركضُ بجنون نحو سيارتي الصغيرة بالمواقف... وعقلي يفرضُ علي أبشع المشاهد التي قد تفتعلها طليقتي بابنة أختي... لتكمل جرائمها المختلة.

«(رعد) السفاح الذي نبحثُ عنه هو طليقتي (أسرار)، لا وقت للشرح... انظر إلى أول حرف من كل ضحية ذكر وسيكونون اسمي... وانظر لأول حرف من الضحايا الإناث وسيكونون اسم طفلتنا المستقبلية (أغصان)... والتي لا يعرف اسمها سواي أنا و(أسرار). رجاءً تواصل مع الحراس الذين وضعتهم على العمارة التي أسكن بها... اسألهم عن أي شيء مريب رأوه. لنذهب هناك الآن فحياة ابنة أختي (نسمة) مهددة!»

ألقيتُ عليه المعلومات المبعثرة دون تركيزٍ مني، فبحلول تلك اللحظة كنتُ قد ركبتُ سيارتي... وتبعني هو على عمًى. شغلتُ محركها وضغطتُ بقدمي على دواسة الوقود بكل ما أوتيت من قوة، مُخرِجًا هاتفي لأتصل على أختي (أبرار)... لاهثًا بعنف. أجرى (رعد) مكالماتٍ عديدةٍ لأعضاء الفريق والحراس الذين وضعهم على منزلي، بينما أنتظرُ إجابة من أختي.

دقات قلبي تتزامن مع رنات الهاتف، راجيًا الله أن يوقظها من نومها في ذاك الوقت المتأخر من الليل. رنةٌ تلو الأخرى ولا رد من (أبرار)، أغلقتُ الخط لأتصل بزوجها الذي تمنيتُ أن يكون ساهرًا تلك الليلة... أرجوكَ يا (منذر) فحياةُ ابنتك في خطر!

أصبح كل شيء منطقيًا في تلك اللحظة...

اختيارها الأزقة لمعاناتها من (فوبيا الأماكن الضيقة).

اختيار الأطفال في ربيعهم السابع لأنه وقت دخولهم للمدرسة... لتتفنن بإلباس الفتيان والفتيات المنتزَعي القلوب لباسهم المدرسي.

أسماء الضحايا المكونة لاسمي واسم طفلتنا (أغصان) الذي طالما كررته على مسامعي.

رائحة معقمات المستشفيات الفواحة التي تملأ بها أزقة جرائمها، هي تعرف تمام المعرفة أني أكرهها.

وحتى الأحياء التي ارتكبت فيها الجرائم، (أم العراد) حيث قاعة زواجنا، (النزهة) حيثُ عُقد قراننا، والحي الثالث كان للفتِ انتباهي بالطبع بعد أن احتسيتُ القهوة فيه، ماذا عن (شهار) حي الجريمة الرابعة؟

بالطبع! كان ذاك حي المشفى الذي تعمل فيه، والذي تقابلنا فيه لأول مرة.

خلا طريق المطار من السيارات في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وعيناي مثبتتان على عداد السرعة الذي يتزايد مع ضغط قدمي دون تناقص... ١٠٠ ... ١١٠ ... ١٢٠ ...١٣٠. عدمُ استجابة كل من (منذر) و(أبرار) شجعني على زيادة سرعتي وأخذ المخرج المطلوب، بسرعةٍ جنونية جعلت السيارات القليلة حولي تعتقد أني تحت تأثير المسكر... أو أحد أولئك المفحطين الذين تخلو لهم الطرق بمنتصف الليل.

(رعد) يتمسكُ بالباب بعد أن أجرى مكالماته المهمة، مترقبًا والتوتر بادٍ في عينيه. لم أستسلم وأعدتُ الاتصال بأختي وزوجها، حتى كاد برج الاتصالات يحترق من كثرة اتصالاتي.

عيناي على عداد السرعة تارةً، وعلى هاتفي تارةً، وعلى الساعة التي تجاوزت الثانية فجرًا تارةً أخرى... وكأني أقود على بركانٍ حامٍ. بدأت زخات المطر بالهطول لتزيدَ الوضع سوءًا، أرجوكَ يا الله احفظ الطفلة بحفظك فهي طيرٌ من طيور جنتك الموعودة. أدماءُ الأطفال الذين قتلتهم طليقتي انتقامًا مني في رقبتي؟ ليتني أعطيتُها

سبعين طفلًا بدلًا من واحد، وأوقفتُ المرض السايكوباتي هذا... لم أعلم يا إلهي أنها ستنتقم مني بتلك الطريقة.

وصلتُ للمنزل لأجدَ رجال الحراسة على بوابة العمارة، ينتظرونني بأسلحتهم مانعين الجميع من الدخول أو الخروج... وبعضُ سكان العمارة يقفون خلفهم. أوقفتُ سيارتي وسط الشارع وركضتُ نحو البوابة، تاركًا المحرك وباب السيارة وكل شيء خلفي... ممسكًا بمسدسي لأتقدمَ سريعًا تحت المطر الخفيف. فتحتُ شقة أختي وتبعني الحراس مع (رعد)، لأتجه مباشرةً نحو غرفة ابنة أختي التي كان بابها مفتوحًا... ليرسل قلبي نغزاته المؤلمة المتشائمة. لم ألتفت له وركضتُ نحو الغرفة، في الوقت نفسه الذي خرجت فيه (أبرار) من غرفتها متسائلةً ببيجاما نومها وبطنها المنتفخ... قبل أن تتنبه للحراس وتعودَ لغرفتها صارخةً:

«(أديم)، ما الذي يحدث؟!»

صرخت خلف باب غرفتها، لم أُجبها ودخلتُ غرفة (نسمة).

لا أحد، اللعنة! صرختُ مخاطبًا (أبرار):

«هل نامت (نسمة) في غرفتكم؟»

خرجَ (منذر) وآثار النوم والتعب مرتسمةٌ على وجهه، قبل أن

يقول بصوت مرهق:

«لا لا، نامت في غرفتها... ما الخطب؟»

صرختُ متجوّلًا بأنحاء الشقة كالمجنون:

«اللعنة، (نسمة)... (نسمة)... (نسمة)!»

لا أحد، لم يُجبني سوى هزيم الرعد المفزع وتساؤلات (منذر) القلقة... تمنيتُ آنذاك أن تزعجني بوجهها المستدير... تمنيتُ أن تكون مختبئة في مكانٍ ما... بحثتُ عنها تحت الأرائك وخلف الدواليب... قبل أن يستوقفني (منذر) ناظرًا في عيني بحدة:

«(أديم) ما الذي حدث لابنتي؟!»

خرجت آنذاك (أبرار) من غرفتها مرتديةً شرشف صلاتِها، ناظرةً لي هي وزوجها... في انتظار إجابةٍ مني. شعرتُ أن (منذر) على وشك صفعي بعنف، ومن يلومه؟! لا يوجد أشرسُ من والدٍ قلقٍ على حياة ابنته. لم يتركا لي مهربًا ولم يعُد هناك مجالٌ للشك، (نسمة) الآن بيد (سفاح الأزقة) أو (أسرار)... قلتُ بغباء:

«أعتقد أنها بحوزة السفاح... لا تقلقا، أعدكما أني سأعود وهي معي!»

وضعت (أبرار) يدها على فمها ممسكةً صرختها، بينما وضع (منذر) كلتا يديه فوق رأسه... محاولًا أخذ نفس عميق... صدمةٌ كتلك قد تتسببُ في انزلاق طفلتها من رحمها خوفًا. أن تعد أهل الضحية بإيجاده أو القبض على المجرم والاقتصاص منه، أمرٌ غبيٌّ جدًا فسيعلقون الآمال عليك ويلومونك أنت بدلًا من المجرم في حال لم يتم القبض عليه... لربما قلتُ ذلك لأن قلبي تمناه بشدة وعقلي صفعه بالحقائق المنطقية وأبشع المشاهد التي قد تقوم بها السفاحة لابنة أختي.

خوف، قلق، حب، كراهية، اضطراب، رهبة... كل تلك المشاعر تضاربت داخلي حتى أنني لم أعلم مشاعري تجاهها بالضبط... أكرهها أم أحبها الآن؟

دخلَ بقية أعضاء الفريق للشقة، لأستمع لصفارات الشرطة التي أحاطت بالعمارة... ونظراتُ القلق باديةٌ على وجوههم. همس (رعد) وهو يسحبني للخارج:

«هيا، لنخرج حتى لا نفزعهم أكثر»

قال (سراج) مطمئنًا وهو في أشد الحاجة لمن يطمئنه، مربتًا على كتفي وعيناه تفضحان قلقه:

«لا تقلق يا (أديم) سنجد ابنة أختك وتعود لكم سالمة إن شاء الله»

لم يكُن ليهدئني شيءٌ بعد كل ما حدث، مع مشاعري المتضاربة التي رآها الفريق. خرجنا من العمارة لأرى سيارات الشرطة التي أفزعت الحي بأكمله، بصفاراتها وإضاءاتها الحمراء والزرقاء... تحت زخات المطر الخفيفة... لينظر الجيران من نوافذهم وقد أيقظتهم من نومهم الهنيء. قال (رعد) بنظرته الحازمة، حاكًا لحيته الخفيفة التي ملأها الشيب ليشير لـ(عامر):

«سنذهب أنا و(عامر) لتفحص كاميرات المراقبة لهذا الحي وإعطاء التعليمات لجميع الأجهزة ونشر صور (أسرار) للنشرات الإخبارية بينما...»

رنَّ هاتفي وسط حديثه لأرى المتصل، مجهول الهوية... قبلتُ الاتصال والجميع يترقبون... لأضع المكالمة على مكبر الصوت... كانت تلك لحظةً عصيبةً أشبه بدهر جراء التوتر. قلتُ وشفاهي ترتجف ودقات قلبي تتسارع، بنبرةِ من انتهى للتو من البكاء:

«ألو»

«قابلني وحدك عند مكان نزهتنا المعتاد، ولو رأيتُ معك أي أحد فسأنحرها أمامك»

مضى وقتٌ طويلٌ منذ لامس صوتها مسامعي، أيتها المشاعر اللعينة... كيف تجرئين على بث الاشتياق داخلي بهذه الطريقة؟ لم أصدق ما كان يحدث حولي البتة، اعتقد جزءٌ من عقلي أنه مجرد كابوس سينتهي قريبًا... فما أمر به الآن لن أتمناه لأسوأ أعدائي.

بلا تفكير، هرعتُ لسيارتي قبل أن يمسك (رعد) بذراعي ويوقفني بقوة قائلًا:

«لن تذهب وحدك!»

صرختُ عليه وعيناي تشتعلان غضبًا:

«أتريدها أن تقتل الطفلة؟»

قال (سراج) محاولًا تهدئتي بعد أن أفلتَ (رعد) ذراعي:

«اهدأ قليلًا يا (أديم) أرجوك، إن ذهبت وحدك فستقتلكما معًا»

هز (عامر) رأسه بالنفي مخالفًا الفريق، ليتفق معي لأول مرة قائلًا... وشعره الفوضوي يتطاير مع الرياح:

«أنا مع (أديم) في هذه النقطة يا رجال، المجرمة زوجته السابقة وهو أدرى بما هي قادرة على فعله... إن ذهب معه أحد فستقتل الطفلة ونخسر كل شيء»

تدخل (سراج) الذي لمعت أضواءُ سيارات الشرطة على وجهه الأسمر المبتل، المحلوقِ اللحية والشارب... قائلًا:

«أين المكان يا (أديم)؟»

أجبتُهُ متنهدًا بعمق:

«جبل (دكا)»

أكملَ مقترحًا:

«سيصعد هو وحده الجبل بسيارته، بينما نكون نحن بالأسفل على طريق (الشفا)... محاصرين الجبل من جميع الاتجاهات حتى يعطينا (أديم) فرصة الهجوم»

صمتَ الجميعُ مما أشار إلى منطقية الفكرة، وتقبلهم لها على مضض... أما أنا فلم يكُن يهمني أي شيء سيفعلونه... كل ما يهمني هو الاتجاه للجبل بأقصى سرعة. قال (رعد) والبرق يومضُ خلفه:

«اتفقنا، اتجه لها يا (أديم) وخذ حذرك أرجوك... وإن مضت نصفُ ساعةٍ ولم تعُد فسنقتحم الجبل»

قال (عامر) راميًا مفتاح سيارته لي:

«خذ سيارتي فهي أفضل من قطعة الخردة التي تقودها هذه»

أمسكتُ بمفتاحه لأهرع لسيارته ويهرع الجميع لسياراتهم لحاقًا بي، شغلتُ المحرك ودستُ على الوقود سريعًا لتصدر العجلات صوتًا مزعجًا باحتكاكها السريع بالإسفلت المتشرب بمياه الأمطار... لم أنظر خلفي أبدًا. لم أملك الوقت للوقوف لالتقاط أنفاسي حتى، اشتعلَ البرقُ أمامي في الطريق الخافتة أضواؤه... ليتبعه زئير الرعد المدوي ومساحات الزجاج تبعد قطرات الأمطار حتى تتضح لي الرؤية. قطعتُ كل الإشارات ولم أتبع أي إرشاداتٍ مرورية، اتبعتُ قانونًا واحدًا فقط... إنقاذ روحٍ بشرية على وشك لقيان حتفها.

ما الذي سأقوله حين ألقاها؟ أأعتذرُ وأعدها بتحبيلها بمئات الأطفال؟ ما الذي ستقوله هي؟ مُفزعٌ للغاية أن يكون من تبحث عن الأمان عنده، ليس سوى المجرم الذي جعلك تبحث عن الأمان من الأساس... كيف لتلك الفتاة ذاتِ الشامة والابتسامة الألطف على الإطلاق أن تتحول لمجرمةٍ منزوعة الرحمة؟! إلهي ثبت قلبي وعقلي عند رؤيتها، فوحدك يعلم ما ستفعله وما ستثيره داخلي من مشاعر.

بعد سباقٍ على الشوارع المطيرة التي كدتُ أنقلبُ فيها، بسيارة (عامر) السوداء ذات الدفع الرباعي... سلكتُ (طريق الشفا) الذي يقع جبل (دكا) على قمته. أثار ذاك الطريق المتصدع والمتشقق إسفلته الكثير من ذكرياتنا معًا، كان مكاننا المفضل للتنزه بعيدًا عن البشر... حتى اكتشفنا معظمه واستقرت نزهاتنا على سفح الجبل ذاك... والله عالمٌ بما تخبئه لي فيه الآن.

إلى تلك اللحظة لم أصدق أن ما أمر به حقيقة، تمنيتُ أن تكون بريئةً بعد كل شيء... تمنيتُ أن يكون السفاح كما تخيلته بالضبط... بشع الوجه كريه المنظر بندباتٍ حفرت معظم وجهه. كان علي أن أركز منذ البداية، فقد ترصدت لي بذاك الزقاق وظهرت بطولها الموازي لطولي... ومن يلومني؟ فلن يعتقد أي محقق على وجه الأرض أن طليقته أو أحد أقربائه هو المتهم. ألقيتُ نظرةً على المرآة لأجد أسطولًا من السيارات المختلفة ورائي، ملاحقين سيارتي بسرعتهم الجنونية وصفارات الشرطة وأضوائها المعمية للأبصار... والغيوم ترسلُ أمطارها الغزيرة علينا من كل جهة. خلا الطريق الصاعد من السياح الذين يملؤونه كل صيف في (الطائف)، وإن كانت هناك وجهاتٌ أخرى لهم الآن إلا أن (الشفا) و(الهدا) ستبقى

الوجهة الأولى وقت الأمطار... خصوصًا لأولئك الذين تستهويهم المناطق الجبلية الطبيعية.

خفقَ قلبي بشدة حين رأت عيني لوحة المخرج، (جبل دكا) إلى اليمين... انعطفتُ بشدة نحو الجبل لتحدث العجلات صوت الاحتكاك المزعج ذاته. قدتُ قليلًا قبل أن أنعطف لليمين مرةً أخرى للطريق الترابي المرتفع، تبقّى القليلُ فاصمد يا قلبي وتماسك. تشعبتُ في الطريق الترابي حتى وصلت للمكان المنشود، المليء بالأشجار على سفح الجبل... لأدوس على المكابح بشدة حين ظهرت أمامي أخيرًا... بعد ثلاث سنوات.

على سفحٍ رامةٍ

وقفتْ متبسمةً بأسنانها المتراصة التي لم تفقد بياضها ولمعانها، تحت الأمطار الغزيرة المتساقطة التي بللت شعرها البني الذي حلقته من الجانب... مُصوبةً مسدسها نحوي بكلتا يديها... مشيرةً لي برأسها لأخرج.

«ترجل من السيارة ببطء رافعًا يديك، ولا ترتكب حماقات رجال الشرطة التي تراها في الأفلام»

صرخت بابتسامتها وعيناها العسليتان تلمعان مع أضواء السيارة. ابتسامتُها تلك مع وقفتِها المتلهفة المنتصرة، ذكرتني بمشهدٍ لا أعلم كيف طرأ على عقلي في تلك اللحظة بالذات. مشهدِ انتظارها لي على الكوشة، بفستان زفافها الأبيض المنفوش وطرحتها البيضاء... ممسكةً باقة الورد في يدها متأملةً مشيتي على الممر بثوبي وشماغي والبشت الأبيض الذي كساني. الفرقُ أنها تحملُ مسدسًا الآن عوضًا عن باقة الورد، وتنتظر قتلي عوضًا عن العيشِ معي حتى توافينا المنية.

أومأتُ برأسي وخرجتُ من السيارة بهدوء، رافعًا يديّ لها خاضعًا لرحمتها... وعيناي لا تغادرانها... لتنهمر قطرات المطر الغزيرة على شعري وتبلله. لم تتغير أبدًا، سوى شعرها البني الناعم الذي حلقت جانبه الأيمن. ابتسامتها العريضة بالأسنان المتراصةِ التي كانت لطيفةً ذات يوم، أصبحت مفزعةً سايكوباتية ترتعد النفس حين رؤيتها. شامةُ وجنتها اليمنى وبشرتُها الحنطية ووجهها الطويل، كل شيء بقي كما هو... إلا أن مشاعري تجاهها أصبحت مختلطةً مضطربة.

اقتربتْ مني ليضطربَ قلبي وتتزايد ضرباته، لم يعلم أيهرعُ نحوها لاحتضانها أم يبتعد خوفًا منها... حتى قرر البقاء مكانه وهي تقترب منه. أغمضتُ عيني وتشهّدتُ في نفسي، وهي تمشي نحوي بابتسامتها المفزعة اللطيفة في الوقت ذاته... وقد أضرمت رؤيتُها النار في قلبي وأشعلت فتيلَ معركةٍ بين كل المشاعر في الدنيا.

«حب» من شاركتُها حياتي وقاسمتُها الحميمية والهيام، يخوض مبارزةً عنيفة مع «كره» من أهدرت دماء ثمانية أطفال وانتزعت قلوبهم من أجسادهم... لتتبعهم برجلين لا يملكُ أي منهما سجلًا إجراميًا أو مخالفة مرورٍ حتى.

«الاشتياق» لصاحبة الحضن الذي فاقَ كل الأحضان دفئًا

وأمانًا، في خضم عراكٍ عنيف مع «الخوف» ممن أفزعت سكان (الطائف)... وحرمتهم لذة النوم خوفًا من أن لا يعود أطفالهم من المدرسة ثم يجدوهم في أحد الأزقة بلا قلوب.

«الطمأنينة» مع الفتاة الوحيدة التي أويتُ وسكنتُ إليها، تشهر سلاحها بوجه «القلق» من أي حركةٍ غير متوقعةٍ ستودي بحياتي للهلاك وملاقاة البارئ.

فصلتنا بضعة مليمترات عن بعضنا، حين وقفتْ بابتسامتها العريضة التي تبدو مختلةً تارةً ولطيفةً تارةً أخرى... وعباءتها السوداء المخططة تتساقطُ منها قطراتُ الغيث. لامسَ عطرها الزكي أنفي وغمرني بالذكريات السعيدة. مدت يدها اليسرى لتلامس وجهي البئيس وتتحسسهُ، وتتخلل شعر لحيتي الطويلة لأشعر بنعومة يدها التي افتقدتُها في لياليّ العصيبة... ويدها اليمنى تتناقض مع اليسرى موجهةً المسدس صوب رأسي. احتضنتني بقوة وهي تمسك رأسي، لتلامسه حديدة المسدس... لم أتمالك مشاعري اللعينة وسقطتْ دمعةٌ من عيني رغمًا عني. همستْ بصوتِها المطمئن رغم كل ما افتعلت من مصائب:

«اشتقتُ لك أيها الغريب»

تغنّى العاشقون جميعًا بلحظة اللقاء بعد الفراق الطويل، لكن

عراب العاشقين كان أبلغهم حين قال:

ولـما تلاقينـا على سفـحِ رامـةٍ

وجـدتُ بنـانَ العامريـة أحمـرا

فقلتُ: خضبتِ الكفَّ بعد فراقنا؟

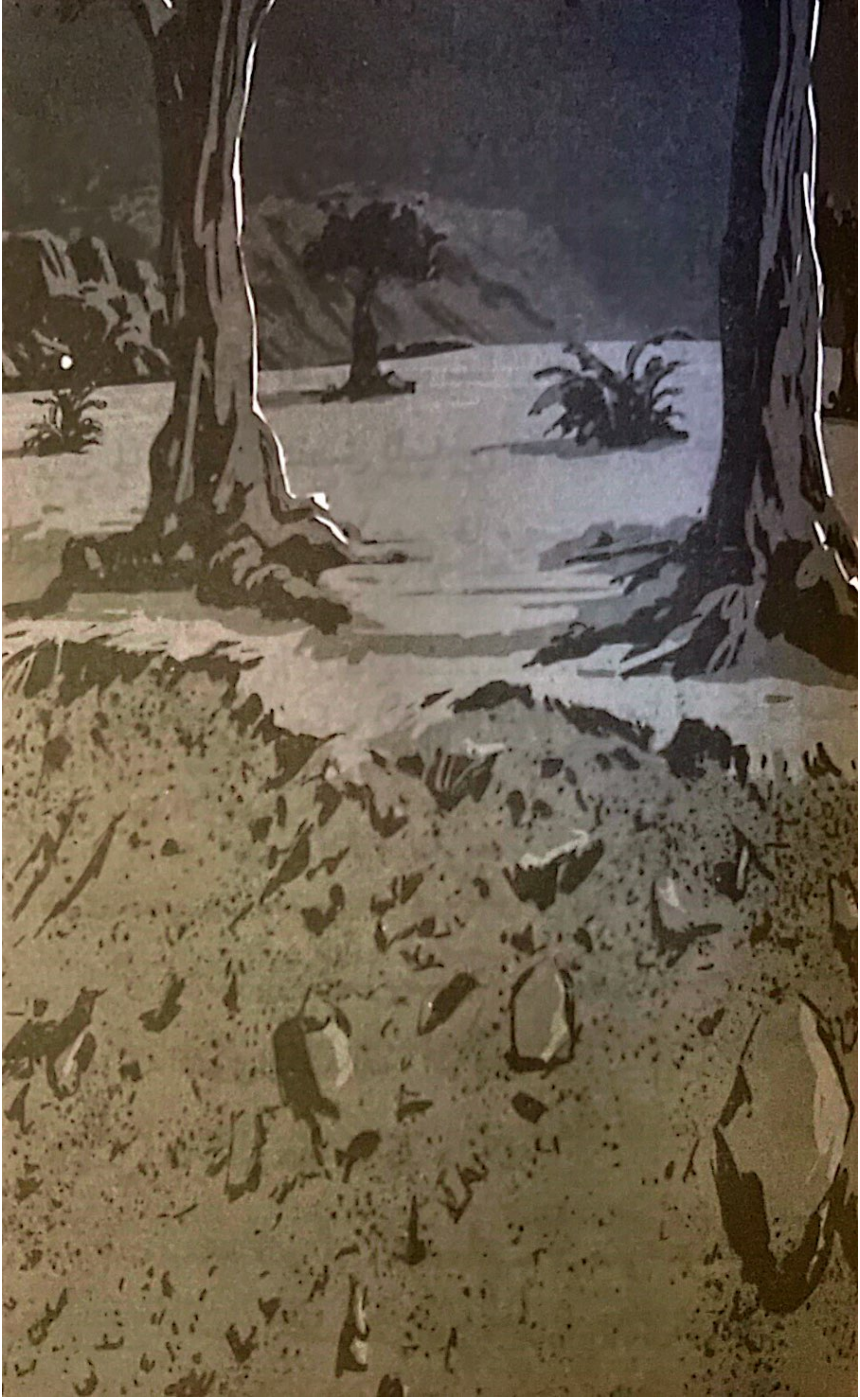
فقالـت: معـاذ الله ذلك ما جـرى

ما أشبه وصفه بتلك اللحظة العصيبة، لا سيما ونحنُ على سفحِ ذلك الجبل... إلا أن الفرق أن لحظته هو وجميعِ العاشقين كانت سعيدةً مسرورة عند اللقاء... أما أنا فقد اختلط حالي بين السرور والحزن والقلق والاطمئنان والأمان والخوف وكل شيء.

استيقظ عقلي وقتها لينبهني أنها فرصتي لقلب الموازين، أستطيعُ أخذ المسدس منها وإنهاء الليلة العصيبة هذه قبل حدوث مكروه لأي منا! رفعتُ يدي لمسدسها بهدوء وأوشكتُ على إمساكه، لكنها سرعان ما تنبهت وابتعدت شاهرةً إياه في وجهي... فاتحةً عينيها على مصراعيهما. اختفت ابتسامتها آنذاك ليسقط قلبي من مكانه، ما الذي ستفعله الآن؟!

«أمامي، هيا!»

أشارت برأسها لأمشي أمامها نحو مكاننا المفضل، بين الأشجار وعلى حافة الجبل... الأشجار التي قد ماتت وذبلت أوراقها بحلول ذلك الوقت.



كانت قد وضعت لنا السجاد وبعض الأطعمة مع إبريق الشاي، وقد ابتلت وغمرها مطر السماء الهاطل. اللعنة، توقعتُ أن أجد (نسمة) هنا... أين تحتجزها يا ترى؟!

«أخرجي (نسمة) من ألاعيبك أرجوكِ يا (أسرار)، خذي ما تريدينه مني لكن اتركيها وشأنها»

قلت لها بتوسل، لتلصق المسدس بظهري وتضغط على كتفي للجلوس على السجاد...لأذعن لها ويشعر جسدي بالماء الذي غرق به السجاد.

«هل كان طلبي صعبًا يا (أديم)؟ كان بوسعنا أن نكون أسعدَ آباءٍ على وجه الأرض»

قالت خلفي بينما استمر بصري بالغوص في الأفق المظلم الممطر، ليعزز البرقُ كلامها بإرسال ومضةٍ منه في الأفق الفسيح... ويطلق الرعدُ هزيمه المدوي بتلك القمة الموحشة.

«أجبني! هل كان هذا صعبًا، هاه؟!»

صرخت ليسقط قلبي من مكانه، أقسم أن صرختها كانت أقوى من الرعد بمراحل... فلم يكُن مني إجابةٌ إلا أن هززتُ رأسي الذي تناثرت منه قطرات المطر بالنفي. كانت خطتي أن أنتظر لحظة

ضعفٍ منها لأستغلها، وكم كان التفكير مرهقًا تحت تأثير السلاح والمطر المتساقط والبرد القارس.

«كل الفتيات بعمري حظين بأطفال من أزواجهن، فما الذي ينقصني عنهن؟ لا شيء! بل أنا أحسن منهن، أنا أحسن من جميع الأمهات فهن لا يستحققن الذرية! كان على الجميع أن يروا أن قلوب الأطفال الأذكياء أولئك تنتمي لي أنا، حبها وتقديرها لي أنا... أمهم الحقيقية... لا أمهاتهم الزائفات!»

«أرجوكِ يا (أسرار)، لنعُد لمنزلنا وأعدكِ أني سأعطيك ما أعطى هؤلاء الأزواج زوجاتهم. ما رأيك؟ نعود لمنزلنا بـ (العقيق) وحياتنا ويرزقنا الله بطفلٍ يكمل لنا حياتنا ويعيد...»

توقفتُ حين سمعتُ ضحكها الهستيري وهي تقرصُ خدي وتصفعهُ بلطف، لتجلس القرفصاء أمامي بابتسامتها المختلة المخيفة... وعيناها العسليتان تلمعان مع وميض البرق والماءُ يتصببُ من شعرها... قائلةً:

«(أديم) يا (أديم)، أتحسبني أحد المجرمين الأغبياء الذين توهمهم لتأخذ ما تريد منهم ثم تقبض عليهم؟»

قهقهت هازّةً رأسها، قبل أن تسرح شعرها للشمال بيديها... وأنا أنظرُ لها كالفأر المرتعد.

«لكن هنيئًا لك، لا تزال ذكيًا كما تركتك... حسنًا لست ذكيًا للغاية فلم تعرفني إلا بعد اللوحة الفنية الرابعة... ورحتَ تبحثُ في أمر حارس مدرسةٍ هَرِم ومختطف سخيف. لنتفق أني أذكى منك على الأقل»

قالت متبسّمةً وهي تمسحُ على رأسي كطفل، ابتسامتها التي لم أعُد أطيقها!

«تمامًا كما توقعت، سيقع الاختيار عليك لتحقق في القضية... لا سيما وقد ذاع صيتك في الأرجاء بعد القضايا الأخيرة»

أكملتْ وعيناها تتوغلان بأعماق عينيّ المرتعدتين. لم تعُد هي الفتاة التي أعرفها للأمانة، هذه ليست (أسرار)... هذه روحٌ شريرة احتلت جسدها وعبثت به! نعم أنا لا أؤمن بتلبس الجن لكن طليقتي أصابَها جنونٌ من نوعٍ ما، أو أنها مختلةٌ منذ عرفتُها ولم تظهر آثار الاختلال إلا الآن.

«أخبرني بحق، كم تقيم لوحاتي الفنية الجديدة من عشرة؟ أعتقد أنها فاقت توقعاتك بكثير، فهذه المرة لم أستخدم فرشاة ولوحة...

بل جسدتُ الفن على أرض الواقع. تصور أني تعلمتُ الجراحة في غضون ٦ أشهر فقط، كم بالغوا في تقدير الجراحين ومستوى ذكائهم!»

تحدثتْ بفخر وعيناها العسليتان تلمعان، وكأنها تصفُ رسمةً أنهتها على كوب قهوة وهي تستمع للموسيقى الهادئة... لا قتلَ جماعةٍ من الأطفال الأبرياء لتمثل بجثثهم.

«حسنًا، كلنا نعرفُ أنك لم تصعد هذا الجبل لعسلية عيني أو شامة خدي التي تمتدحها دائمًا...أنتَ هنا من أجل ابنة أختك ولولاها ما صعدت»

صمتتْ قليلًا وكأنها تنتظرني لأجيبها، لكن لساني تثاقل عن الحركة آنذاك وبدأت موازين عقلي تختل... مع البرودة القارسة والمطر الذي أغرقَ ثوبي وجسدي والقلق المفرط. أكملتْ واقفةً لأرفع نظري نحوها:

«عليكَ أن تختار، أنت أم (نسمة)»

فتحتُ عينيّ على مصراعيهما ناظرًا لها بارتعاد، علي أن أشتري المزيد من الوقت ليقتحم الفريقُ الجبل فيبدو أن (نسمة) ليست هنا. سألتُها محاولًا إظهار القليل من الحزم والثقة:

«وما الذي يضمن لي أن (نسمة) سليمة؟!»

نظرت لي باشمئزاز واحتقار، ثم حولت النظر لمسدسها قائلةً:

«ليسَ الأمر وكأنك تملك خيارًا، هيا يا رجل اختر سريعًا فالوقتُ ليس من صالح ابنة أختك... ولا تحاول شراء الوقت فأنا أعرفُ حركاتكم هذه... كنتُ زوجة محقق ذكي... أنسيت؟»

غمزتْ لي وضحكت بجنون، ليتردد صدى ضحكتها بين الجبال.

«أطمئن أولًا على سلامة الطفلة ثم خذي ما تريدين مني»

«الطفلة ليست هنا يا أحمق! إنها في منزلنا الآن تُحقَنُ بـ(المورفين)، وسأدعك تتصل بزملائك لينقذوها ونصفي حساباتنا نحن»

«حسنًا دعيني أتصل بهم سريعًا وأطمئن أنها هناك ثم خذي ما شئتِ مني!»

صرختُ عليها والغصة بحلقي، لتتبسّمَ وتلمعَ عيناها قائلةً:

«لا تزال شجاعًا وذكيًّا كما تركتك»

أشارتْ بمسدسها لتسمحَ لي، أخرجتُ هاتفي سريعًا واتصلتُ

بـ(رعد)... وبمجرد ما استجاب قلتُ له:

«(رعد)، أرسل القوات والإسعاف نحو منزلي القديم في (العقيق)، (نسمة) هناك تُحقَن بـ(المورفين) أرجوكم أنقذوها سريعًا، اتصل بي وأخبرني ما يحصل معك»

لم أُعطِهِ فرصةً للرد، أغلقتُ الهاتفَ ورفعتُ بصري نحوها، نحو (سفاح الأزقة). لم تهتز للحظة حتى، تحت المطر الغزير الذي أغرقَ شعرها البني المنحوت جانبه... وألصقَ عباءتَها السوداء المخططة بالبياض بجسدها. وقفتْ أمامي بنصف ابتسامة دون أن تنبس ببنت شفة، مما جعل توتري يبلغ أقصاه فلم أكُن أستطيع توقع خطوتها القادمة أبدًا... لم يكُن ليتوقع أحد خطوتها القادمة.

يالغبائي الشديد، لِمَ صعدتُ وحدي ورميتُ نفسي بملعبها لتتحكم بكل شيء؟! لم أستطِع تحمل التوتر أكثرَ من ذلك وقررتُ حينها التحدث بما في قلبي، لا فائدة من التعاطف والاستدراج مع هذه المختلة!

«أتعتقدين أنك ستفلتين بعد قتلي؟! القوات تحاصر الجبل من كل صوب، وسيكون السيف في انتظارك بساحة القصاص!»

لا أعلم حتى الآن ما الذي حركني للتحدث باندفاع وتهور، لاسيما و(نسمة) لا تزال مجهولة الحال!

تلاشتْ نصفُ ابتسامتها وحدقت بي ببرود دون ردة فعل على كلامي، استمرتْ على تلك الحالة المرعبة لحظاتٍ شعرتُ أنها دقائق... وجسدُها لم يرتعشْ للبرد القارس لوهلة وكأنها فقدت الإحساس. تحركتْ بعيدًا عني بضع خطوات حتى وصلت لسفح الجبل، لتلتف عائدةً لمكانها ويداها خلف ظهرها بمسدسها... لتستمر بالذهاب والعودة قائلةً بغرور:

«هممممم، هل تعتقدُ أني أهابُ الموت مثلك؟ أتعتقد أن خوفي الأعظم هو القبض علي؟ لو أردتُ ذلك لما استدرجتك وجذبتُ انتباهك عدة مرات لأوجهك للطريق الصحيح، مشكلتك أنك لا تزال مقتنعًا أنك أذكى مني! عزيزي (أديم)، لم تكُن لتعرف هويتي أو تعثر علي لو لم تكُن تلك إرادتي»

هدأ المطرُ بعد جملتها تلك على نحوٍ غريب وكأنها أرادت ذلك، لتوجه بصرها نحو السماء باسطةً يديها وذراعيها... فاتحةً فمها ليتساقط داخله رذاذ المطر الذي لا تزال السحب ترسله.

«حسنًا، لقد حان الوقت»

قالت آخذةً نفسًا عميقًا، لتوجه مسدسها نحو رأسي بابتسامةٍ شفت وجهها.

«لحظة ليس هذا اتفاقنا (أسرار)، علينا أن نطمئن على (نسمة) أولًا... أرجوكِ...»

«ششششششش، أصبحَ صوتك مزعجًا أكثرَ من ذي قبل»

تذمرتْ مقاطعةً جملتي المذعورة، ملصقةً سلاحها بجبيني المبتل... مما وضعني أمام الأمر الواقع وأخرسَ لساني. كدتُ أستمر بالجدال وشراء الوقت لكن هذا لن ينطلي عليها، أغمضتُ عيني وأخذتُ نفسًا عميقًا... إن لم تستطِع حماية ابنة أختك فمُت كالرجال على الأقل. همستُ ونبضاتُ قلبي تُسمَعُ مع همساتي:

«أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله»

أطلقتْ ضحكةً متهكمة لم أكترث لها، وأبقيتُ عيني مغمضتَين... مستعدًّا لملاقاة الرفيق الأعلى. سحقًا، لم أعلم أن شعور انتظار الموت بتلك الدرجة من التوتر... لحظاتُ انتظاره أسوأ منه بحد ذاته!

فجأة، شعرتُ بابتعاد المسدس عن جبيني... وما أن فتحتُ عينيّ حتى تلقيتُ تلك الرصاصة التي لن أنسى شعورها ما حييت وحتى بعد الموت! اخترقتْ ذراعي اليسرى لأصرخ صرخةً كادت تتقطع

لها حبالي الصوتية، ولا يزالُ صوتي مبحوحًا جراءها... سرت الدماء في وجهي المحتقن الذي احمر فاتحًا عيني على مصراعيهما وصرخاتي المتوجعة تزداد! نظرتُ لذراعي التي تفجرتْ منها شلالات الدماء ليبدأ لون الدم الأحمر القاتم بالانتشار على ثوبي الأبيض. كان الشعور قاتلًا، ولو أن تلك الرصاصة اخترقت رأسي فلا أعتقد أن الشعور سيكون أسوأ من تلك التي اخترقت ذراعي... سوى أني بالطبع سأغادر الحياة.

رفعتُ بصري نحوها بعينين صرختْ نظراتُهما ألمًا ووجعًا وحنقًا، منتظرًا تفسيرًا لما فعلتهُ اللعينة ذاتُ الشامة. لم تفارق ابتسامتها وجهها الحنطي، متلذذةً بالنظر لعشيقها السابق وهو يتلوى ألمًا أمامها... مثبتةً عينيها على عيني وهي تقول:

«أكنت تعتقد أني سأقتلك؟ لن أفعلَ بالتأكيد فالوطن يحتاج أمثالك، لكني سأعطيكَ شيئًا تتذكرني دائمًا به حين تراهُ وتشعر به وتتألم منه وتعاني... وتستمر بما تؤديه من مهام نفخرُ بها»

لم أعلم أكانت تهزأ بي أم لا، ولم أكترث للأمانة فحجم الألم وشدته كانت لا تطاق أو توصف... أطلقُ صرخاتي تارةً وأتوقفُ تارةً أخرى لألتقطَ أنفاسي المتقطعة. استمرتْ بالتحديق بي وأنا على

تلك الحال المزرية، الدقائق تمر وهي متسمرةٌ في مكانها تنظرُ لطليقها المتأوه الطريح... دقائقُ تمرُّ كالساعات!

رن هاتفي أمامي ونظرتُ للمتصل الذي لم يكُن سوى العقيد (رعد)، امتدت يدي اليمنى للرد عليه قبل أن تأخذ (أسرار) الهاتف وتمسكه أمامي... وتجيبَ اتصاله فاتحةً مكبر الصوت:

«(أديم) أبشرك أنهم وجدوا (نسمة) سليمةً لم يمسسها سوء، سنقتحم الجبل الآن»

كم أراحني ذاك الاتصال وطمأن قلبي، أوشكتُ على الكلام معه لكنها أنهت المكالمة ورمت بالهاتف من على سفح الجبل... ناظرةً لي بابتسامتها التي تمنيتُ أني لم أرَها في حياتي. لحظاتٌ وسمعتُ صفارات الشرطة خلفي، التفتُّ بما تبقى لي من قوة لأرى أضواءها التي أراحتني كثيرًا... لكن سرعان ما جذبتني (أسرار) للوراء وألصقتْ مسدسها بجبيني. لمحتُ (رعد) و(سراج) و(عامر) يتقدمون بحذرٍ بستراتهم الواقية من الرصاص، مصوبين مسدساتهم نحو طليقتي... ورجالُ الشرطة والتدخل السريع خلفهم بستراتهم المدرعة الواقية وأسلحتهم.

«انتهت اللعبة أيها السفاح، ألقِ سلاحك وتقدم ببطء»

صرخ (رعد) وهو يقفُ مكانه عابسًا، وبجانبه (سراج) و(عامر) تحت رذاذ المطر الخفيف.

«لو اقتربتَ مليمترًا واحدًا فسأفجر دماغه! ابقَ مكانك»

أجابتهُ صارخةً ومسدسها على رأسي، محيطةً عنقي بيديها وذراعي تقطرُ دمًا وتتقلبُ في ألمها المبرح.

أفلتتْ يدُها المحيطةُ عنقي واكتفتْ بتصويب المسدس خلفي دون أن تنبس ببنت شفة، لم يتوقع أحدٌ خطوتَها القادمة... حتى تقدم (رعد) قليلًا قبل أن تطلقَ رصاصةً من مسدسها بعيدًا على الأرض... لتُعلِمَ الجميع أنها مستعدةٌ لتفريغ ذلك المسدس برأسي.

تطلبَ الأمرُ لحظاتٍ حتى حدث ما لم يكُن بالحسبان، بدأتْ (أسرار) بالبكاء والصراخ بشكلٍ هستيري... رفعتُ رأسي نحوها لأرى عينيها العسليتين تقطران دمعًا آسيًا. هدأت فجأةً وتوقف صراخها والبكاء، لتمسحَ على رأسي قائلةً:

«آسفة أيها الغريب، لم أقصد إيذاءك أبدًا... أما استطعت منحي طفلًا واحدًا فقط؟»

وصلت طليقتي إلى الحضيض آنذاك، إذ تبدل صراخها للهدوء التام... وسرعان ما عاد للصيحات الهستيرية... لتعيد الكرة مرارًا وتكرارًا. ما استطعتُ منحك الطفل والله يا ذاتَ الشامة.

تطلعتُ للفريق الذي أشفقَ على حالي وحالها، حتى لمحتُ نظراتَ (عامر) المريبة بعينيه... كان يشيرُ لي بعينه وكأنه يريد إخباري بشيء. لحظاتٌ قبل أن يحرك قدمه للخلف ببطء ويشير بعينه لأفهم ما يريد بالضبط... كان يخبرني أن أركل بقدمي للوراء لأُسقِط (أسرار) من أعلى الجبل!

يالذكائه الخارق، ماذا لو تداركت نفسها ولم تسقط؟ ماذا لو أطلقتْ بعشوائية قبل أن تسقط لتقع رصاصتها علي وتودي بي للهلاك؟ ماذا لو سحبتني معها لنسقط كلنا؟! وكيف لي أن أركلها وأنا جالسٌ... ما هذا؟ أشعرُ بالدوار الشديد! دار رأسي يمنةً ويسرةً قبل أن تسودّ الدنيا أمامي وتنغلقَ عيني ببطء، ويسقطَ رأسي على الأرض وأفقد الإحساس بكل شيء حولي تمامًا.

فقدُ جلل

أشعرُ بالفقد، فقد جزء مهم مني لم أعلم ماهيته. دقاتُ جهازٍ مزعج بجواري تتردد في رأسي، جهازٍ حاولتُ تذكرهُ من دقاته المزعجة المألوفة... لم يكُن عقلي في حالةٍ مستقرة لتذكر أي شيء. لم يتذكر حتى هوية صاحبه لوهلة، قبل أن يعصفَ بذهني كل ما حدث معي... لآخر شيءٍ أتذكرهُ قبل غيابي عن الوعي.

ظهرتْ (أسرار) في الفضاء الأسود اللامنتهي، بابتسامتها المختلة ذاتِ الأسنان المتراصة... لترفعَ يدها ببُطء ويظهرَ مسدسها. صوبتهُ نحوي ومكثت لحظات قبل أن تختفي عن نظري، التفّ وجهي يمنةً ويسرةً بحثًا عنها... لا أثر!

مضتْ أجزاءٌ من الثانية قبل أن تظهر مجددًا أمامي، لكنها لم تترك لي الفرصة وهي تركضُ بسرعة... صارخةً:

«هل كان طلبي صعبًا يا (أديم)؟ كان بوسعنا أن نكون أسعدَ آباءٍ على وجه الأرض!»

فتحتُ عينيّ صارخًا بهلع، لتختفي (أسرار) والفضاء الأسود الكئيب اللامنتهي... ويتبدل إلى التلفاز المعلق على الحائط أمامي.

«بسم الله، بسم الله، أنتَ بخير الآن... أنت بخير»

شعرتُ بيدٍ دفيئة تضعُ يدها على ذراعي، التفتُّ لليمين لأرى (أبرار) تنظرُ لي بعينيها البنيتين القلقتين... وبطنُها المتفخُ مختبئٌ خلف عباءتها الزرقاء. كانت الدقاتُ التي سمعتُها في منامي حقيقية، ذلك جهازُ تخطيط القلب بصوته المزعج المعروف... الذي لا تخلو منهُ غرفةٌ في أي مستشفى.

يغمرني شعورٌ غريب، شعورُ الفقد الذي اجتاحني ولم أعلم فيمَ وكيف... شيءٌ ما ليسَ صحيحًا. لم أعرف أكان فقدًا عاطفيًا أم جسديًا للأمانة، كان على عقلي معالجة الكثير من الأمور لدرجةٍ أرهقته... ما الذي حدثَ في غيبوبتي؟ كنتُ على وشك سؤال (أبرار) قبل أن تقعَ عيني أخيرًا على الجزء الأيسر من سريري، شيءٌ ما مفقودٌ هنا... شيءٌ اعتادت عيني على رؤيته بل استعماله... أين ذراعي اليسرى؟! حاولتُ إخراجها من لباس المستشفيات، ظنًّا مني أنها علقت فيه ولم أُدخلها في مكانها الصحيح... لكنها لا تتحرك!

كان عقلي يرفضُ الحقيقة المريرة في لحظة إنكارٍ غريبةٍ منه، بدأتُ أتحركُ في سريري بشكلٍ جنوني... باحثًا بعيني عن ذراعي المفقودة.

«(أديم)، (أديم)... اهدأ»

لم أُعِر حديث أختي أي اهتمام، لدي عضوٌ مهم أضعتهُ وعلي البحثُ عنه!

وضعتْ (أبرار) يدها على كتفي لتستوقفني وأعيرها انتباهي، واقفةً بجواري وعيناها مثبتتان على عيني... لتأخذ نفسًا عميقًا قائلةً:

«سأشرح لك كل شيء والله، لكن اهدأ واشرب قليلًا من الماء»

مدتْ لي كأس الماء الذي شربتُهُ سريعًا، لأُعيدَ النظر إليها بعيني المرتعدتين... منتظرًا منها الشرح.

«حسنًا يا (أديم)، لا أريدك أن تهلع يا عزيزي. أصابت (الغرغرينا(*)) ذراعك اليسرى جراء الرصاصة التي اخترقتها،

---

*) الغرغرينا: نوع من أنواع موت الأنسجة الناجم عن عدم كفاية إمدادات الدم. وقد تشمل الأعراض تغيرًا في لون الجلد إلى الأحمر أو الأسود، والخدر، والتورم، والألم، وبرودة الجلد، ووقوعه، وحدوث الغرغرينا في الأقدام والأيدي هو الأكثر شيوعًا.

وتحتم على الأطباء قطعها وإلا انتقلَ المرضُ والتلوث لبقية أجزاء جسدك والإضرار بها...»

لم أحتج لأسمعَ أكثرَ من ذلك، خفقَ قلبي بشدة وعينيّ تكادان تخرجان من مكانهما... علمتُ الآن لِمَ لم تقتلني اللعينة! علمتُ الآن فقط الذي قصدتهُ، حين قالت أنها ستعطيني شيئًا أتذكرها به دائمًا... حين أراه وأشعرُ به وأتألمُ منه وأعاني!

«أهلًا (أديم)، معك الطبيب (حسن)... حمدًا لله على سلامتك... كيف تشعر الآن؟»

لم أنتبه لدخول الطبيب للغرفة حتى سمعتُ صوتَه، ليسحبني من أفكاري ويعيدني للواقع. اصطنعتُ الابتسامة مومئًا برأسي، قائلًا بصوتٍ مبحوح جراء صراخي الذي لا أنساه حين اخترقت الرصاصة ذراعي:

«الحمدلله»

أكملَ مبتسمًا:

«الحمدلله، قد تشعرُ ببعضِ الألم في ذراعك فسنرفعُ عنك المسكنات... لكنهُ سيزول بعد يومٍ أو يومين بإذن الله»

أنهى إجراءهُ الروتيني الذي يفعله مع كل المرضى، وغادر الغرفة

ليتركني وحيدًا مع أفكاري وذراعي المقطوعة... لم أعتدْ على منظرها بعد وقررتُ عدم النظر إليها. التفتُّ نحو (أبرار) حين تذكرتُ شيئًا مهمًا، الشيء الذي جعلني أصعدُ الجبلَ لأفقدَ ذراعي... سألتُها:

«كيف هي (نسمة) الآن؟ هل مستها بأي سوء؟»

أجابتْ ممررةً يدها خلال شعرها هازّةً رأسها بالنفي:

«بخير حال ولله الحمد، وجدوها مقيدةً فقط بمنزلك القديم وأعادوها لنا... لم تضع يدًا عليها البتة»

أراحني جوابها كثيرًا لأطلق تنهيدةً عميقةً، غريبةٌ تلك الفتاة... سمحتْ لها نفسُها بقتلِ ثمانية أطفال لكنها توقفت عند ابنة أختي! الحمدلله على أية حال، يكفي أني سألوم نفسي على أولئك الأطفال الثمانية طيلة حياتي... لعدم تنبهي للأمر مبكرًا. أرحتُ ظهري على سريري لأباغتها بسؤالي التالي:

«كم بقيتُ غائبًا عن الوعي؟»

«قلتُ لك قبل قليل، ثلاثة أيام»

لم أستغرب جوابها فقد شعرتُ بتلك الليالي الطوال، في الفضاء اللامنتهي الذي أراني الكوابيس بشتى أنواعها. أطلقتُ نفسًا عميقًا مغمضًا عيني، أعنّي يا الله على تحمل الحياة بذراع ويد واحدة...

حمدًا لله أنها لم تسلبني اليمنى على الأقل. شعرتُ بالفخر بنفسي التي تقبلت الأمر، وحمدت الله ونظرت للجانب الإيجابي من المصيبة التي لا إيجابية فيها!

«خاليبي!»

صرختِ الطفلة الصغيرةُ راكضةً نحوي، بوجهها المستدير وقميصها الأزرق اللطيف... وشعرُها الأسود الناعم رتيبٌ وممشطٌ للوراء.

شقت الابتسامةُ وجهي وأنا أمدُّ ذراعي لها لأرى ذراعي المقطوعة، فأنزلتُها وخبأتُها تحت البطانية... لأكتفي بغمرها بالقبلات وقرص خدها. دخلتْ برفقة أبيها (منذر) الذي تهندم بثوبه وشماغه، متبسمًا مادًّا يده لأصافحه... لتقول (نسمة) بكل براءة:

«تقول ماما أنك عثرتَ على الشرير وقبضت عليه!»

ضحكتُ عاليًا قارصًا خدها ثانيةً مجيبًا:

«لم أكُن لأفعل ذلك لولا شجاعتك وقوتك!»

مسكينةٌ تلك الطفلة التي تعرضت لصدمةٍ غير متوقعة في

عمرها ذاك، أحمدُ الله أنها لم تكُن تعرف (أسرار) جيدًا... وإلا سبب لها الاختطافُ جرحًا عميقًا.

«حسنًا حسنًا، انظروا من استيقظ الآن... بطل الوطن!»

التفتُّ لمصدر الصوتِ الذي أعرفه جيدًا، والذي لم يكُن سوى العقيد (رعد)... الذي رأيتُ ابتسامته لأول مرة حاملًا باقة ورد بين يديه.

«هلا أحضرتُ لك شيئًا؟»

سألتني (أبرار) واقفةً من مكانها، لأشكرها وتغادرَ الغرفة سريعًا مع زوجها وابنتها.

تقدم العقيد وقد أخفتِ ابتسامتهُ مع صلعته وكرشه تحت ثوبه الأسود هيبته بالكلية، هل هذا العقيدُ الذي نعرفه والذي لم يبتسم أبدًا منذ التقيناه؟ دخل بعده الرائد (سراج) بقميصٍ أحمرَ قاتم تناسب مع بشرته السمراء، حتى بدا أصغرَ عمرًا بوجهه الحليق الذي لم يحوِ شعرةً واحدة... حاملًا طبق شوكولاتة. كان المقدم (عامر) الأخير دخولًا بثوبه الأبيض وشعره المجعد، لتلمعَ عيناهُ العسليتان تحت إنارة الغرفة البيضاء... وضوء الشمس المتسلل من النافذة.

«كيف حالك يا رجل؟»

سأل (عامر) ناظرًا لي بعينين امتلأتا فخرًا، جالسًا على الكرسي بجواري.

«بخير والحمدلله، إياكم ونظرات وحديث الشفقة يا رجال... سأطردكم إن فعلتم!»

قلتُ محذرًا الجميع متبسّمًا، لطالما كرهتُ نظرات الشفقة وأحاديثها.

قال سراج ضاحكًا وهو يربتُ على كتفي:

«هش هش لا تقلق، لن يشفق عليكَ أحدٌ فكل ما فقدتَهُ اليدُ التي تمسحُ بها مؤخرتك»

انفجرتُ ضاحكًا وتبعني (عامر)، سوى (رعد) الذي رمق (سراج) بنظرةٍ مستاءة موبّخًا:

«يالك من لبقٍ في الحديث!»

للأمانة، كان استهزاء (سراج) في وقته ومحله... احتجتُ أحدًا يخفف عني ما مررتُ به دون إشفاقٍ وسؤالٍ عن حالي باستمرار.

«لِمَ لم تركلها للوراء؟»

سألني (عامر) متلاعبًا بسكسوكته التي خالطها الشيب.

«أنتَ تتابع الكثير من أفلام الأكشن، أتريدني أن أركلها لتعلقَ بي ونسقط معًا... أو تتدارك نفسها أو تطلق النار بعشوائية»

أجبتُهُ متهكمًا ليضحكَ ويتبعه (سراج)، ويكتفي (رعد) بالاستماع.

ظهرتْ بتلك اللحظة صورتها على التلفاز! نعم صورةٌ لـ(أسرار) بأعلى يمين الشاشة والمذيعُ المترسم بشماغه الأحمر وعقاله يمسكُ أوراقهُ ويتحدث، أمسكتُ بجهاز التحكم ورفعتُ الصوتَ لأقصاه... غيرَ مكترثٍ بمحادثة الفريق التي قطعتُها.

«وقد أصدرت المحكمة الجنائية بمدينة (الطائف) الحكم النهائي بالحبس المؤبد للمدعوة ((أسرار) بنت...) الملقبة بـ(سفاح الأزقة)، والتي ثبتتْ إدانتها بمقتل ثمانية أطفال ورجلين بإقرارها... لما أثبتهُ الأطباء من اعتلالاتٍ واختلالاتٍ نفسية أفقدتها التحكم بعقلها وتصرفاتها... مما لا يوجب القصاص بحقها لفقدانها التكليف والأهلية»

(الطائف)

ربيع الآخر، ١٤٣٦ هـ

سيف العذل

«أواثقٌ أنك تريدُ النزول؟»

سألني (سراج) موقِفًا سيارته أمام مستشفى الصحة النفسية، في تلك الساعة المبكرة من الصباح.

اكتفيتُ بالإيماء عاقدًا ذراعيّ اللتَين تغطتا بمعطفي الفرائي، ناظرًا لذلك المستشفى الذي عُرِفت به مدينتنا منذ القدم... وكان الأصدقاءُ يمازحون بعضهم بعضًا أن مكانهم هناك. لم أعتقد أني سأدخله يومًا ما كزائر أبدًا، وها أنا ذا أزور فيه أقربَ الناس لي... من كان أقربَ الناس لي.

خرجتُ تاركًا زميلي في السيارة، حاثًّا الخُطا نحو بوابة المستشفى تحت رياح (الطائف) القارسة... وسمائها الضبابية. ثأرت المدينة الجبلية مسلّطةً جوها القارس الضبابي المطير، لتخفي أشعة الشمس... متزامنةً مع الأحداث العصيبة التي وقعت على أراضيها. أخرجتُ بطاقتي الأمنية وأريتُها لسيدة الاستقبال التي بدت في الخمسين من عمرها، لتتحدث عبر الهاتف وتطلبَ مني

الانتظار قليلًا. اتكأتُ بظهري على الجدار الجانبي شاعرًا بنبضات قلبي في رأسي، مطلقًا تنهيدةً عميقةً عبرت عن ثقل الهموم المجتاحة لصدري.

ظهرَ رجل الأمن أخيرًا ليصطحبني لأراها. تخطينا الأروقة والدهاليز، وأنا أوزع نظراتي على المرضين والأطباء الذين انهمكوا بعملهم... وكم كان شاقًا ويتطلب الصبر وقوة القلب... التعامل مع أمراض النفس والعقل. وصلنا لذلك الدهليز الذي وضعت عليه الحراسات الأمنية المشددة، تحدثَ رجل الأمن مع المسؤول عن الباب المصفح... الباب الذي قبعت خلفه أنواع الأمراض النفسية الإجرامية... ومعهم زوجتي السابقة. لم أعُد قادرًا على ذكر اسمها، ولم يعُد ذاك اسمها أصلًا... أصبحت إنسانًا مختلفًا لا أعرفه.

طلبوا مني مد ذراعيّ للتفتيش الروتيني، مددتُ ذراعي اليُمنى ثم اليسرى الاصطناعية... التي لم أمتلك القدرة على تحريك أصابعها بل تحريكها هي فقط. دخلتُ بوابة المحجورين عقليًا ليصطحبني ممرضٌ نحو الغرفة المنشودة، والهدوء القاتل يخيم على أركانها... لم تكُن مليئةً بالصرخات المفزعة الجنونية كما توقعت.

توقفتُ عند غرفتها وغادرني الممرض لأنظُر عبر زجاجها وأراها. خفقَ قلبي بشدة حين أبصرتُها مستلقيةً هناك على سريرها، بلباس المصحات الأبيض في تلك الغرفة التي كساها البياض الكئيب.. بأضوائها وجدرانها وسريرها وأريكتها ولباس قاطنتها. لحظة، أذاك طفلٌ تحمله بين ذراعيها؟!

كانت تحمل رضيعًا تغطّى بلفّته الصغيرة المشتدة حوله، لم تبدُ لي ملامحه أو وجهه... فقط لفته وهي تحمله وتهزهزه وتناجيه. طفلُ من هذا؟!

ألقيتُ نظرةً على ذراعي الصناعية اليُسرى، ثم رفعتُ بصري لمسببتها.. لتلحظَ وجودي أخيرًا وتنهضَ من سريرها.. حاملةً الرضيع بيديها. اجتمعت الهالات السوداء تحت عينيها العسليتين الناعستين، وشعرُها البني القصير اتجه لكل زاوية من فوضويته.. لتتحركَ شفتاها وتتبسمَ بأسنانها البيضاء المتراصة. تحركت نحو الزجاج ببطء وتثاقُل، والابتسامةُ لا تفارق وجهها ذا الشامة... لتتضح لي ماهية الرضيع الذي تمسكت به بشدة. آلمني قلبي كثيرًا حين أبصرتُ الدمية الصغيرة التي لفتها، وتمسكت بها أيها تمسك وكأن حياتها تعتمد عليها... هل تعتقدُ أن تلك الدمية طفلتها بحق؟

وقفتْ أمام الزجاج بطولها الموازي لطولي، وتكلمت عبر الفتحات الصغيرة الموضوعة للتحدث متسائلةً بهدوء... وقد تلاشت ابتسامتها:

«هل كان الأمرُ يستحق كل هذا العناء يا (أديم)؟ أكانَ التنازل صعبًا عليك؟»

اكتفيتُ بالنظر إليها، لتقهرني الدموع وتتساقط من عينيّ رغمًا عني... لأمسحها بيدي وذاتُ الشامة تتأمل طليقها دون ردة فعلٍ على وجهها الحنطي. التزمَ كلانا الصمت ونحن نتأمل بعضنا بعضًا للحظات، وما عساي أقول لها بالله؟ وما عساها تقول هي؟ أنا أتخاطبُ مع فتاةٍ رفع عنها القلم، وكل أفعالها وما يخرج من لسانها غيرُ معتبر... ما الذي أتى بي أصلًا هنا؟ لا يوجد سببٌ واحدٌ يدفعني لزيارتها، سوى أنني ربما أردتُ الاطمئنان عليها... مهما حاول عقلي إنكار ذلك بعد كل ما تكبده من عناءٍ منها.

كانت تحول نظراتها بين طليقها وبين طفلها المزعوم، فتارةً تتبسم بوجه الدمية الصغيرة وتداعبها بيدها... وتارةً ترفعُ نظرها وابتسامتها قد تلاشت بوجه زوجها السابق. أتعتقد أن تلك الدمية طفلتنا أيضًا؟

على الرغم من أنها أفقدتني ذراعي اليسرى للأبد، إلا أن رؤيتها بتلك الحالة دفعتني للتعاطف المطلق معها... حتى نسيتُ لوهلة كل ما ارتكبته بحق تلك الأرواح البريئة.

«تعرفُ أين تجدني دائمًا أيها الغريب، بابي مفتوحٌ دائمًا لك»

كانت تلك آخر عباراتها لي، ضاحكةً عائدةً لسريرها... وهي تحمل دميتها بين يديها وتداعبها... بين تلك الجدران الأربعة البيضاء التي تدفعُ حتى العاقل للجنون.

«لن تنسى الطائف السفاح الذي زلزل أركانها وأهدر دمها، وأقلق مضاجعها وحرمها لذة النوم»

(ص. م.)

تمت بفضل الله.

فتحتُ عينيَّ على مصراعيهما بعد نزول الخبر علي كالصاعقة! دقاتُ قلبي تتسارع وصداعي يتزايد، لم تكُن صدمتي في أن تم انتدابي لتحقيقٍ خارج (الرياض)... بل لانتدابي في تلك القضية بالذات... القضية التي هزت (الطائف) بل المملكة بأسرها!

othmanauthor

romiantoma

romiantoma



9 786038 403242

adabarabic7

services_book

servicesbook1

www.adab-book.com

مركز الأدب العربي للنشر والتوزيع